# مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»
ربيع الأول ١٤٣٨ هـ - ديسمبر ٢٠١٦م

• «إسبانيا الله»
• إغناسيو سمبريرو

• «الفكر اليهودي في القرن العشرين»
• أدريانو فابريس

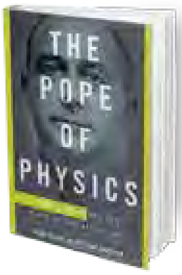


• «بابا العلوم»
• جينو سيكري وباتينا هورلن

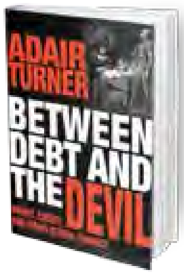


• «بين الدَّين والشيطان»
• أدير تيرنر

• «مسار الفشل المدني»
• كوبي ميخائيل، ويوئيل جوزانسكي

• «مشروعية التمرد»
• ألكسندر سكيبيرسكيخ

• «موت النقود»
• فالنتين كاتاسونوف

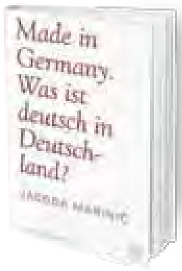


• «صنع في ألمانيا»
• ياغودا مارينيك

• «الفلسفة الإسلامية»
• أنطوني روبرت بوث

• «نحن المسيحيين والإسلام»
• يانوش كروليكوفسكي

• «كتابة الرئيس»
• كانغ وون جوك

## الصفحة الأولى...

### هلال الحجري

من المصادر الأجنبية حول عُمان: كتاب «عُمان المجهولة» لعالم الآثار والرحالة الأمريكي ويندل فيلبس، وقد صَدَر في لندن سنة ١٩٦٦م.

ويذكر ويندل فيلبس أنَّه في أوائل العام ١٩٥٨م، بدأوا رحلتهم الجوية من صلالة، فأقلعت طائرتهم من الممر الأرضي الصلب بين أشجار النارجيل، وبعد عبور جبال القرى طاروا إلى الشمال الشرقي، لمدة ثلاث ساعات، فوق الرمال، ومع ظهور الجبال العالية البعيدة بدت لهم «الواحات الخضراء الرائعة، ذات المنازل الطينية الصغيرة، التي تجمعت في شكل عناقيد حول الأحواض المائية الدُّرية، التي كانت تتلألأ كالمرايا». ويؤكِّد فيلبس أنهم حينما كانوا يستكشفون الجبل الأخضر، رأوا مساحة شاسعة من الأرض الموحشة الجرداء، ذات الارتفاع الهائل، وهي بمثابة العمود الفقري لعُمان. ويقول: «إنَّ الجبل الأخضر العظيم، أو الجبل ذا الرداء الأخضر، وهو بلا مبالغة، ليس جبلاً عاديًّا؛ لأن الصخر الذي يتكون منه هذا الجبل له لون أخضر قاتم كالبرونز العتيق، والجبل نفسه كتلة صخرية ذات أعشاب وأشواك، تمتد على مساحات متسعة ومتفرقة، وعلى رأسه قمة ضخمة غير مستوية واضحة أمام العين». ويصف الجبل الأخضر بأنه غني بالمناظر الرائعة من الصخور والقمم، التي قطعتها عصور جيولوجية منذ حقب بعيدة، وهناك مساحات وعرة مليئة بالمقابر، وشقوق عميقة غريبة الشكل، تشبه الجيوب الضيقة العميقة. وهناك الأودية الضيقة المليئة بالشلالات والجداول، والجدران المغطاة بالنباتات، و«هي كعذراء يتهدل شَعْرُها على ظهرها»، وهذه النباتات تروى بمياه أمطار الشتاء الغزيرة التي تخزَّن معظم أيام السنة. ويعلق فيلبس: «لقد استمتعنا بالطيران فوق الجبل، وكانت تجربة أوجدت في نفوسنا كثيراً من الأحاسيس الرائعة يصعب على المرء نسيانها؛ فالطيران فوق الجبل الأخضر في عُمان كان بحق أعظم تجربة جبلية لنا».

ويذكر فيلبس أن الطائرة نزلت بالقرب من مسقط، وقد تكرَّم السلطان سعيد بن تيمور بإرسال الأستاذ محمد أمين عبدالله لكي يقوم بإجراء مراسم الاستقبال لهم، وكان يصحبه مستشار السلطان للشؤون الدفاعية. وقد قادهم مندوب السلطان بأقصى سرعة ممكنة عبر طريق المطار بمحاذاة ساحل البحر، وبعد ثلاثة أميال وصلوا مدينة مسقط، ويؤكد بأنها تُعَدُّ، بلا شك، النافذة الرئيسية التي تُطل منها عُمان على العالم «وهذه النافذة منفتحة للخارج، وليس للداخل، وليس هناك منفذ لاختراق الأسوار الطبيعية التي تُحصِّن المدينة».

ومن مسقط اتجه فيلبس وفريقه إلى صُحار، ويذكر أنَّ ساحل الباطنة ليس به ميناء، ويمتد بطول ١٢٥ ميلاً، وهو أحد الاستثناءات الملحوظة، «ويضم نصف سكان عُمان». ويقول إن أرض الباطنة خضراء خصبة، يحجبها غطاء من الرمال الجافة. وقد عوضت الآبار الكثيرة في هذه المنطقة عن نقص العيون والأودية الجارية الدائمة، وتزرع بها أشجار النخيل بكثرة، ويُعتنى بها اعتناء واضحا. ويصف فيلبس صحار بأنها «مدينة جميلة، وعدد سكانها ضخم، ومنازلها قوية، وسور المدينة على ارتفاع كبير، ويحتاج الحصن الذي فيها إلى أكثر من ١٧٠٠ رجل للدفاع عنه».

hilalalhajri@hotmail.com

# "إسبانيا الله".. لإغناسيو سمبريرو

إغناثيو فيراندو *

**يُعدُّ حضور المسلمين في إسبانيا من حيث عددهم المتزايد، ومن حيث أهمية الدور الذي يضطلعون به في كنف المجتمع الإسباني، ظاهرة لافتة لأنظار المفكرين والمعنيين، ومؤشرا على حركة التغيرات الاجتماعية التي تشهدها إسبانيا في الوقت الراهن، وستشهدها لا محالة في المستقبل القريب، باتجاه التعدد الثقافي والديني، بعد أن ظلت خلال عقود طويلة بلدا يتميز بالأحادية الثقافية والاجتماعية والديانة الرسمية الوحيدة بسبب انغلاق النظام السياسي الذي ساد المشهد العام حتى أواخر القرن العشرين. وفي هذا الكتاب، يَسْعَى المؤلف الصحفي الإسباني المعروف إغناسيو سمبريرو، إلى تقديم صورة شاملة قدر المستطاع عن أوضاع المسلمين الحالية في إسبانيا على مختلف فئاتهم وطبقاتهم، مع تحليل مفصل لشتى جوانب حضورهم في أرض كانت تحمل في الماضي اسم الأندلس.**

لقد عمل المؤلف مدة طويلة في المغرب مراسلا لجريدة «البابيس» القريبة في مواقفها السياسية من اليسار السياسي الإسباني الذي يرأسه الحزب الاشتراكي. وبفضل خبرته المتراكمة أصبح سمبريرو من أبرز المتخصصين المعترف بهم في العلاقات الإسبانية المغربية وفي الشؤون الإسلامية، إلا أنَّ بعض مقالاته التي لا تخلو من انتقادات لسياسة الحكومة المغربية وتتناول بشيء من الجرأة بعض القضايا «الحساسة»، تسببت في إحداث قطيعة بينه وبين المغرب؛ ففي سنة ٢٠١٤ قام الوزير الأول المغربي، عبد الإله بن كيران، برفع دعوى قضائية ضده أمام المحكمة الوطنية الإسبانية متهما الصحفي الإسباني بالتحريض على الإرهاب من خلال نشر مقالة تحتوي على مقطع فيديو منسوب إلى مؤسسة الأندلس للإنتاج الإعلامي التابعة لتنظيم القاعدة ببلاد المغرب الإسلامي. ونتيجة للضغوطات السياسية الشديدة التي مارستها الحكومة المغربية، قامت إدارة «البابيس» بإعفاء سمبريرو من منصبه كمراسل لها في المغرب.

وقبل التطرق إلى موضوع الكتاب بحد ذاته، لا بد أن نشير إلى تناقض صارخ بين العنوان على الغلاف وما حواه الكتاب بين دفتيه. كأن المؤلف مال إلى روح الإثارة لجلب انتباه القراء فأعطى كتابه عنوانا لافتا هو «إسبانيا الله»، وأتبعه بعنوان فرعي يقول بالحرف الواحد: «ها قد عاد المسلمون بعد خمسة قرون من إعادة الفتح (حروب الاسترداد أو «الريكونكيستا» كما يطلق عليها بالإسبانية)، هم الآن مليونا نسمة وعددهم لا يزال في اضطراد»، مع صورة خريطة إسبانيا وفي داخلها زمرة من المسلمين وهم يؤدون الصلاة جماعة. فماذا يقصد المؤلف بالإشارة إلى مفهوم «الريكونكيستا»، أي، إعادة تنصير الأندلس عبر تقدم الجيوش المسيحية نحو الجنوب، ما انتهى بالاستيلاء على غرناطة، آخر معاقل الإسلام في الأندلس وإجبار المسلمين على اعتناق المسيحية وفي الأخير طردهم من الجزيرة الإيبيرية؟ ولماذا يربط بين هذه الأحداث التاريخية وبين وجود عدد كبير نسبيا من المسلمين في الأراضي الإسبانية حاليا؟ أول ما يخطر في بال القارئ غير المطلع عند إلقاء نظرة على هذا الغلاف الذي يرسم هؤلاء المسلمين كالغزاة الذين ينتشرون في أرض أخرى، فكرة التهديد والخطر على الهوية الإسبانية الأصيلة المزعومة. غير أن محتوى الكتاب لا يصب في اتجاه نشر كراهية الإسلام عند القراء ولا التعبير عن رُهاب الإسلام على الإطلاق أو التمسك بما يسمى بـ «القيم الإسبانية الأصيلة» لدى أوساط المحافظين الإسبان تجاه «موجات المهاجرين المسلمين». شتان ما بين هذا الكتاب الذي يصف أوضاع المسلمين في إسبانيا وصفا موضوعيا إلى حد ما، وبين التشبث بمنطق الوطنية الإسبانية والدفاع المتشدد عن القيم الغربية تجاه ما يطلق عليه تسمية «خطة الغزو الإسلامي»؛ إذ إنَّ ما يقدمه لنا سمبريرو إنما هو رحلة مفصلة في فضاءات الجماعات الإسلامية الموجودة في إسبانيا، عبر التعمُّق فيما تواجهه من مشاكل وصعوبات من ناحية، وما تشكله من فرص وميزات لفائدة المجتمع الإسباني الذي يحتضنها من ناحية أخرى. ولعل أبرز تعبير يستخدمه المؤلف لتوضيح رؤيته هو ما نقرأه في المقدمة: «بالرغم من تعدد المشاكل التي تعاني منها الجالية الإسلامية في إسبانيا، هناك مقولتان ثابتتان لا شك فيهما ولا تقبلان الجدل: أولاهما «إن المهاجرين واللاجئين يأتون لإثراء البلدان التي تحتضنهم وفي الوقت ذاته لإفقار البلدان التي يفرون منها»، وثانيهما «إن الهجرات السلمية في عمومها، مهما تسلل في صفوفها أقلية من المتطرفين والمؤمنين بالعنف، لم تغير أبدا قيم المجتمع المحتضن ولم تعدل مؤسساتها تعديلا جذريا».

وفي الأبواب الخمسة الأولى، بعد تقديم دراسة دقيقة توضح البلدان الإسلامية التي يأتي منها المهاجرون وكثافة المسلمين في كل المحافظات والأقاليم الإسبانية، يناقش المؤلف موضوع سبل اندماج جالية المسلمين في المجتمع الإسباني. ما هي المشاكل التي يواجهها عدد من المسلمين (منهم الجدد ومنهم القدماء وحتى الإسبان الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام) يقدر في ١,٨٨ مليون نسمة في أواخر ٢٠١٥، أي، نسبة ٤,٠٦ في المائة من سكان البلد، حسب الإحصائيات الرسمية؟ تكمن المشكلة الأولى، على حد قول المؤلف، في أن نسبة كبيرة من المسلمين لا يجدون فرص عمل في إسبانيا وهي ضعف نسبة البطالة عند الإسبان الأصليين التي ارتفعت في السنوات الأخيرة حتى ٢٠٪ تقريبا، ناهيك عن المهاجرين السريين الذين يبقون على الأراضي الإسبانية في وضعية غير قانونية دون أوراق ودون إذن الإقامة. وبالرغم من الجهود الكبيرة التي تبذلها السلطات الإقليمية والمحلية لتقديم مساعدات مادية للمسلمين ودورات تعليمية وتكوينية من أجل أن يكونوا قادرين على دخول سوق العمل على قدم المساواة مع المواطنين الإسبان، فإن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن سنوات الأزمة الاقتصادية التي شهدتها إسبانيا مؤخرا خلقت طبقة واسعة من المسلمين الذين يعانون من التهميش الاجتماعي ويميلون إلى التقوقع، وقد تؤدِّي هذه الظاهرة الاجتماعية إلى ظهور ونشر الأفكار المتطرفة والتعاطف مع الجماعات الإرهابية الإسلاموية. المشكلة الثانية هي أن الاندماج في المجتمع الإسباني ليس بأمر سهل بالنسبة للمسلمين الذين لا يريدون التخلي عن القيم والطقوس والممارسات الإسلامية التي ألفوها في بلدان الأصل. صحيح أنَّ إسبانيا دولة علمانية ليس لديها دين رسمي، وأن على السلطات الإسبانية احترام كل الديانات على التساوي. إلا أن المذهب الكاثوليكي المسيحي هو الذي يستفيد من الجزء الأكبر من المساعدات الرسمية التي تمنحها الدولة للجمعيات والمنظمات الدينية، في حين أن المسلمين لا يكادون يستفيدون منها. على سبيل المثال لا يتوفرون على مساجد مناسبة يؤدون فيها الصلاة، باستثناء قلة قليلة من المساجد التي أنشئت بتمويل خارجي من بلدان الخليج العربي، فيضطرون إلى استعمال قاعات ضيقة ومنازل خاصة؛ إذ إنَّ السلطات تضع

أمامهم عراقيل وحواجز كثيرة تمنعهم من بناء المساجد في المدن والقرى الإسبانية. ولعل أكبر مشكلة يتصدى لها المسلمون في إسبانيا هي مشكلة الحفاظ على الهوية الإسلامية في حضن مجتمع غربي ابتعد في العقود الأخيرة عن مظهره المسيحي القديم مع إخفاء مشاعر الانتماء الديني عن أعين المجتمع (باستثناء بعض الطقوس الجماعية التي هي أقرب إلى الفلكلور والأعياد منها إلى التدين)، ولا يحبذ إظهار الرموز الدينية في الفضاءات العامة. ومن تجليات هذه المشكلة المرتبطة بما يمكن أن نسميه «صراع الهوية» الجدال الحاد الذي نشأ في إسبانيا شأنها في ذلك شأن بلدان أوروبية أخرى حول ارتداء الحجاب في المدارس والمؤسسات العامة الإسبانية، بعد أن تم إبعاد بعض الفتيات المسلمات المحجبات عن مدارس الثانوية في عدة مدن إسبانية بناء على النظم الداخلية للمدارس الإسبانية التي تجبر التلاميذ على حضور قاعات التدريس مكشوفي الرأس. إلا أنه وبعد نقاش حاد في وسائل الإعلام وفي المؤسسات التعليمية اختتم الجدل في معظم الأحيان؛ باعتبار أنَّ نظاما داخليا لا يجوز في أي حال من الأحوال أن تعطى له الأولية أمام مبدأ عام منصوص عليه في الدستور الإسباني، وهو حرية العقيدة والحرية الشخصية في اختيار الملابس والمظاهر؛ فنتيجة لذلك تمت إعادة قبول الفتيات المحجبات في المدارس. أما الجامعات، فلا توجد فيها أي مشكلة بهذا الخصوص إذ أن الطلاب من الراشدين وهم أحرار لا يجوز إجبارهم على ارتداء أو عدم ارتداء أي ملبس.

وعلى رأس طموحات وتطلعات المهاجرين المسلمين في إسبانيا وسلم أولوياتهم الحصول على الجنسية الإسبانية التي تستعصي عليهم بسبب التمييز الذي يعانون منه مقارنة مع المهاجرين المنحدرين من البلدان التي كانت في السابق مستعمرات إسبانية كبلدان أمريكا اللاتينية والفيليبين وغينيا الاستوائية، فيكفي لهم الإقامة سنتين في إسبانيا للحصول على الجنسية، في حين أن المسلمين لا بد لهم من المكوث في الأراضي الإسبانية لمدة عشر سنوات، وحتى للمغاربة الآتين من منطقتي الريف والصحراء المغربية اللتين كانتا في السابق مستعمرتين إسبانيتين. يقص لنا سمبريرو في هذا الصدد حكاية بعض المسلمين الذين يسعون جاهدين إلى اكتساب الجنسية الإسبانية ولكنهم لم يفلحوا بعد؛ إذ إنَّ السلطات الإسبانية لا تطلب منهم إذن الإقامة والعمل فحسب، بل تطلب أيضا إثبات الاندماج الاجتماعي والثقافي واللغوي في المجتمع الإسباني، وأهم من ذلك، يمكن للسلطات رفض الجنسية بشكل تعسفي استنادا لتقارير المخابرات الإسبانية أو مجرد الشبهات في سلوك طالب الجنسية دون أي تبرير علني. ومع ذلك، يؤكد المؤلف أن الإحصائيات الإسبانية تشير إلى

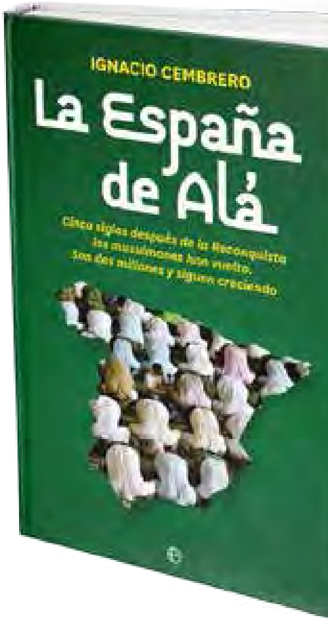


أن درجة الاندماج لا بأس بها مقارنة مع البلدان الأوروبية الأخرى؛ إذ إنَّ المسلمين المقيمين في إسبانيا الذين يحملون الجنسية الإسبانية يشكلون ما يقارب الـ٤٠٪ من مجموع المسلمين.

ومن المواضيع الساخنة التي يُناقشها المؤلف: موضوع الحركات المتطرفة القريبة في مواقفها من التنظيمات الإرهابية التي تحاول الانتشار في الغرب. الحقيقة أن سمبريرو يقدم في هذا الصدد أروع صفحات الكتاب، مع عرض نتائج بحث معمق حول هذه الحركات المتطرفة؛ استنادا إلى معلومات شبه سرية مقتبسة من وزارة الداخلية الإسبانية وإلى جولة من المقابلات والزيارات الميدانية في المنطقتين الأكبر أهمية في هذا المجال؛ وهما: منطقة كتالونيا التي استقبلت أكبر عدد من المسلمين في إسبانيا ومدينتا سبتة ومليلية اللتان تسميهما وسائل الإعلام المغربية بالمدينتين «المحتلتين». فيقوم سمبريرو على منوال ما كان قد فعله في مقالات له نشرت في جريدة «البابيس» بسرد الحوارات التي أجراها مع مجموعة من المسلمين المشتبه بمشاركتهم في أنشطة متعلقة بالإرهاب، إلى جانب مقابلات أخرى أغلبها سرية مع أفراد الشرطة الوطنية الإسبانية ورجال المخابرات. النتيجة هي مقاربة جدية لوضع هذه الحركات المتطرفة في كتالونيا، وللجهود التي تبذلها أجهزة الأمن الإسبانية لملاحقتها وللحد من ظهورها وانتشارها. وبالنسبة لمدينتي سبتة ومليلية، اللتين يقارب عدد المسلمين فيهما نصف إجمالي السكان، واللتين تُعتبران أهم مصدر للمقاتلين الإسبان المتوجهين إلى سوريا من أجل الانضمام إلى «داعش» والتنظيمات الإرهابية الأخرى، فيقوم المؤلف بدراسة مفصلة عن مواقف الأحزاب السياسية تجاه المسلمين وعن السياسة التي اتبعتها السلطات الإسبانية إلى حدِّ الآن وعن وضع العائلات المسلمة الفقيرة التي تعاني من الإقصاء والتهميش والتي يستغلها دعاة التطرف وعن الخطاب الديني الذي يتلقاه رواد المساجد هناك؛ مما يعطي في الأخير صورة متكاملة لوضعية في غاية التعقيد في منطقة حساسة جدا. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن سمبريرو يحاول دائما (وينجح في العموم) الإبقاء على التوازن والاعتدال فيما يكتبه عن هذا الموضوع الساخن.

ومما يلفت أنظار القراء في هذا الكتاب هو أن إحدى المشكلات التي يتطرق المؤلف إلى تحليلها هي النزاع الداخلي الذي يشتد بين المسلمين أنفسهم في إسبانيا؛ فيلاحظ سمبريرو أنهم لم يتمكنوا من تنظيم أنفسهم في رابطة أو اتحاد موحد، فهم منقسمون إلى جماعتين مختلفتين ومتنافستين تكونان في أغلب الأحيان متناقضتين في مواقفهما وأقوالهما، وهما «اتحاد الجمعيات الإسلامية في إسبانيا» (UCIDE) برئاسة الطبيب السوري رياج ططري، و«الاتحاد الإسباني للكيانات الدينية الإسلامية» (FEERI)، برئاسة المغربي منير بنجلون. صحيح أن الحكومة الإسبانية تمكنت من توحيدها في مؤسسة تسمى بـ«المفوضية الإسلامية في إسبانيا»، ولكن هذه المؤسسة لا تعمل في الحقيقة؛ إذ إنَّ هناك تنافسا قويا بين الجماعتين المذكورتين، ونتيجة لذلك يصعب على الحكومة الإسبانية إيجاد صوت موحد يمثل المسلمين في إسبانيا؛ مما أدى إلى عرقلة الجهود الرامية إلى النهوض بوضع المسلمين في إسبانيا.

وختاما.. يُمكن القول بأنَّ مؤلف هذا الكتاب تمكن من تقديم صورة موضوعية بقدر الإمكان عن المسلمين في إسبانيا دون السقوط في الأفكار الجاهزة والنمطية ودون تجاهل تهديد الحركات المتطرفة التابعة للمحافظين الإسبان التي يسودها رُهاب الإسلام (الإسلاموفوبيا) والتي تسعى لتهميش وتعنيف المسلمين الوافدين إلى إسبانيا، ودون نسيان المشاكل الناجمة عن ظهور وانتشار الحركات المتطرفة الإسلاموية التي تحاول التسلل إلى قلوب المسلمين الذين يعيشون بسلام وكرامة في إسبانيا. صورة معقدة، لا شك في ذلك، يُسهم المؤلف بأقواله وتحليلاته وإحصائياته وخرائطه في توضيحها وتقريبها من القارئ الإسباني العادي، بعيدا عن الانحياز إلى طرف من الأطراف المنخرطة في المشهد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي الإسباني الحالي.

---

- الكتاب: «إسبانيا الله».
- المؤلف: إغناسيو سمبريرو.
- الناشر: لا إسفيرا دي لوس ليبروس، مدريد.
- سنة النشر: أبريل ٢٠١٦.
- اللغة: الإسبانية.
- عدد الصفحات: ٣٨٩ صفحة.

* أستاذ وباحث في جامعة قادس - إسبانيا

# "الفكر اليهودي في القرن العشرين".. لأدريانو فابريس

عز الدين عناية *

**شَهِد الفكرُ اليهوديُّ إبان الفترة الحديثة تحوُّلات جذرية، تغيَّرت على إثرها براديغمات النظر للذات وللعالم؛ وذلك مقارنة بما ساد طيلة الفترة القديمة الموسومة بسيطرة الرؤى التلمودية وهيمنة شروحات الأحبار، أو كذلك بما ساد على مدى الفترة الكلاسيكية المتأثرة بأجواء الحضارة العربية الإسلامية، لا سيما التأثر بالجدل العقائدي والمذاهب الكلامية وبوادر تشكل رؤى «الاعتزال» اليهودي، التي بدت ملامحها مع ابن عزرا الغرناطي (ت:١١٦٧م) والسّموءل بن يحيى المغربي (١١٣٠-١١٧٤م) وموسى بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤م)، إلى أن تلقّفها باروخ سبينوزا مع بداية التحول الفكري اليهودي الحديث خصوصا في كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة». غير أن الصرامة العقلية المبكرة لسبينوزا، في زمن ما زال فيه الفكر اليهودي محكوما بطابع المحافَظة، كلّفه طردا من الجماعة السيفاردية بوصفه خارجا عن الملّة. في حين جاءت براديغمات النظر التي طبعت الفكر اليهودي الحديث متأثرةً بأوضاع العالم الأوروبي، وبقضايا التنوير، وفكر الحداثة، وأجواء العلمنة والبحث عن اندماج في المجتمعات الحديثة، وانعكست تلك المؤثرات على رؤى المفكرين اليهود وعلى علاقتهم بالإرث الديني.**

وفي المؤلَّف الجماعي الذي أشْرَف على إعداده أدريانو فابريس أستاذ الفلسفة الأخلاقية في جامعة بيزا الإيطالية وصاحب المؤلفات المتنوعة عن سِير الفلاسفة اليهود المعاصرين، محاولةٌ لرصد هذه التحولات الحديثة. يستعرض المشاركون حشدا من المفكرين اليهود المحدثين، ممن جمع بينهم النهل من مرجعية تراثية يهودية (التوراة والتلمود والقبالة بالخصوص)، وهو ما انعكس على تأملاتهم المتماثلة أيضا. لكن الاشتراك والتماثل المشار إليه بين هؤلاء المفكرين لا يعني أحادية النظر، بل هناك «تعددية فكرية» وتنوع في النظر بينهم. نجد من بين هؤلاء مارتن بوبر، وفرانز روزنفيغ، وفالتر بنيامين، وليو شتراوس، وحنة أرندت، وهانس جوناس، وفلاديمير جانكلفيتش، وإيمانويل ليفيناس. فقد عاش سائر هؤلاء الفلاسفة اليهود في القرن العشرين، القرن الخاطف والتراجيدي، كما يسمى، لما أثقلته من أحداث جسام. حيث يُخصَّص الكتاب مَبحثا لكل من هؤلاء الفلاسفة لعرض أهمّ أطروحاتهم وتأثيرها العميق في الأوساط اليهودية وفي الفكر العالمي؛ إضافة إلى قسم ثان من الكتاب عالجت فيه مجموعةٌ أخرى من المشاركين قضايا محورية شغلت الفكر اليهودي المعاصر؛ مثل: قضية العقلانية، والخلاص، والمسيحانية، والمحرقة، والعلمانية، والتأويل، وجدل الأصالة والمعاصرة. الكتاب بقسميه يتطلع إلى عرض شامل لأهمّ قضايا الفكر اليهودي المعاصر، انتدب لها المشرف مجموعة من الفلاسفة ممن عايشوا أحداث القرن الماضي، وممن كانت لهم إسهامات معتبَرة في تطوير الفكر اليهودي، وأردف ذلك بمراجعات لأهمّ القضايا التي شغلت العقل اليهودي.

ويتميَّز الفكرُ التأمليُّ الشاغل لسائر فلاسفة اليهود من الحقبة المعاصرة بتقاطع قضايا الدين، المستوحاة من تراث ضارب في القدم، مع أوضاع اليهود المضطربة والمتقلبة، في زمن شهدت فيه اليهودية انعتاقا وتغربُنا، تخلّصت فيه تقريبا من سماتها الشرقية، وباتت محتضَنة داخل الواقع الغربي، تعيش إشكالياته وتنهل من معين أفكاره التي بات يتقاسمها جمعٌ واسع من المفكرين.

ولا شك أنَّ معدَّ الكتاب قد غفل عن مفكرين يهود بارزين انتموا إلى الحقبة المعاصرة، مثل أرنست كاسيرار، وكارل لويث، وجرشوم شولام، وأرنست بلوخ، وأندريه نيهير، وجاك دريدا، جاء موضوع الدين لديهم باهتا أو منعدما. وقد برر أدريانو فابريس اختياره بأن عملية الدمج ضمن «الفكر اليهودي في القرن العشرين» لا يكفي فيها التحدر من أرومة يهودية، بل يقتضي المؤلِّف، وعلى وجه الخصوص، أن تشكّل اليهودية عامل إلهام في أعمال الكاتب وحافزا لتأملاته وهو الشرط الحاسم في الاختيار. ومن هذا الباب تم إيثار كتّاب دون غيرهم، ممن شكّلت أصولهم عاملا قويا في التأثير في فكرهم. وقد توزع هؤلاء الكتاب على ثلاثة فضاءات: ألمانيا عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأمريكا على إثر التحاق جموع واسعة من المفكرين والكتّاب والفنانين اليهود بالعالم الحر درءا للاضطهاد، وفرنسا بعد اجتيازها محنة الحرب العالمية الثانية واختيار عدد من المثقفين الإقامة والعيش في أحضانها.

ويتساءل معدُّ الكتاب أدريانو فابريس عن مدى مشروعية القول بـ«الفكر اليهودي»، وما دلالة هذا المفهوم؟ وهل تواجد حقا فكر يهودي مغاير لأنماط فكرية وفلسفية أخرى؟ وإن تواجد فعلا فكر يهودي فما هي خاصياته المميزة؟ وما هي حدود اتصاله وانفصاله مع الفكر الغربي عامة؟ غير أنه يذهب وببساطة إلى أن فحوى الكتاب يتعلق بمجرّد تأمّل صيغ من قِبل مفكرين من أصول يهودية، كانَ التشبّع بالفكر الغربي والانشغال بالمصير اليهودي والخلفية التراثية بيّنا لديهم، وهم على غرار نظرائهم ممن ينتمون إلى تقاليد دينية وثقافية أخرى. ولم يحبّذ معدّ الكتاب اختيار نعت «اللاهوت اليهودي» أو «الفكر الديني اليهودي» لمؤلَّفه، برغم الحضور البارز للبُعد الديني لدى هؤلاء الفلاسفة في القضايا المعالَجة، خشية الزيغ بمقصد الكتاب، كون «اللاهوت» أو «الفكر الديني» يمتح كلاهما من تقليد ديني محدد، ويجدان مرجعيتهما التأصيلية في النص المقدس، في حين الفكر اليهودي، وإن تبنى رؤى دينية، فهو يبدو أكثر تحررا وانفتاحا في إرساء علاقة جدلية مع قضايا الفكر وإكراهات الواقع. كما يشرح صاحب الكتاب مبررات عدم اختيار تعبير «الفلسفة اليهودية» بوصفها نهجا تأصيليا داخل التقليد اليهودي. فالبيّن أن مفهوم الفلسفة اليهودية صيغ من قِبل سلومون مونك (١٨٥٩)، وقد أُطلق تلك التسمية على التأمل العقلي المتبلور في الحقبة الوسيطة، واعتماده الفلسفة الإغريقية لتفسير الوحي وتأويل النص المقدس، في نطاق البحث عما بين العقل والنقل من اتصال. والواقع أن هذا التيار قديم في الفكر اليهودي، برز مع فيلون الإسكندري إبان الفترة الهيلنستية، وتطور لاحقا مع ابن ميمون في الحقبة الأندلسية، وهو ما بلغ نضجه مع سبينوزا في كتاب «الأخلاق» (١٦٧٧م).

شكّل البحث عن الانعتاق شاغلا من شواغل الفكر اليهودي المعاصر. فقد تواصل النظر للانعتاق في مطلع الحقبة الحديثة ضمن أبعاد صوفية تجلّت في مفهوم المسيحانية، التي باتت تشكّل أطروحة خلاص واعدة للفرد وللجماعة. هذا وشهد الحس المسيحاني تأججا في ملحمة سبتاي زيفي (١٦٦٥-١٦٦٧م)، وهي من الملاحم الكبرى التي هزت العالم اليهودي، لما اختزنته من تهويمات ووعود لم تعرف فتورها سوى باهتداء صاحبها إلى الإسلام.

والمسيحانية كتيّار رؤيـوي شكّلت في مدلولها الانعتاقي مراجعة عميقة داخل التاريخ اليهودي، اختلطت فيها النزعات الباطنية بالتأملات الفكرية بحثا عن هوية جامعة على أنقاض الشتات. فقد اُعتبر انعتاق اليهود بمثابة الوعد الإلهي المرتقب، وصارت فضاءاتُ الغربة فضاءات التحقق والتطور لهذا المسار. غدت فرنسا الحديثة الأرضَ المقدسة، وإعلانُ حقوق الإنسان بمثابة الوصايا العشر، والعالم الجديد تجسدا لأورشليم التوراتية. لم ينشأ ذلك النظر عرضا، بل جاء جراء تأويلات واستنباطات طورها حاخامات بحثا عن تلاؤم مع العالم الجديد. في البدء عارضت جل القراءات مزاعم الانبعاث في فلسطين والتأسيس ليهوذا بقيادة مسيا يتحدر من سلالة بيت داود النقية والطاهرة، باعتبارها خيارات وهمية تفتقد إلى الواقعية.

وفي أحضان تلك الحركة المسكونة بنزعة طوباوية، تشكلت حركة التنوير الأفكلارونغ (الاستنارة)، نحَت صوب تأملات واقعية، وهي حركة تنوير قادها جمعٌ من المفكرين بقصد تعاط عقلاني مع الموروث الديني ولسحبِ اليهود نحو الحداثة وإخراجهم من حيز المنبذ (الغيتو) الذي بات يأسر عقولهم وإن غابت الأسوار. فالغيتو الأكبر الذي ناضل ضده الفكر العقلاني اليهودي، خلال الحقبة المعاصرة، هو الغيتو المنتصب في وعي اليهودي وفكره. مثّل حينها ظهور «علم اليهودية» (Vissenschaft Judentums_) مسعى جادا من قبل حركة قراءة التراث لبناء وعي علمي بتاريخ اليهود الديني، بقصد تخليص اليهودية من ثقل اللامعقول والأسطورة الطاغيين، وما كان ليتحقق ذلك المسار في غياب التواصل مع المنزع التنويري السائد في الغرب، الساعي إلى ضبط كافة إيقاعات الحياة داخل أطر عقلية ومعايير علمية. حيث نلحظ رغبة لدى عديد المفكرين اليهود لتورخة الدين والتراث، سواء باعتماد منهج النقد التاريخي في معالجة المرويات، أو بجعل النظر إليها محكوما ببُعدٍ عقلي، بمنأى عن كافة تبريرات اللامعقول.

هرمان كوهين يقول في مؤلّفه «أخلاق الإرادة المحض»: «يهوديتي في علاقة عضوية مع قناعاتي العلمية.. لم أوكل مسار وعيي اليهودي إلى غريزة التماهي بمعتقد أو سلالة ما؛ بل بالعكس إلى الصرامة الفلسفية، في نطاق ما تيسر لي، وإلى النقد التاريخي، لأنهما أنارا لي السبيل» (ص: ٧١-٧٢).

فقد كان الخلاص اليهودي في مدلوله البدئي مشوبا بمنزع صوفي ومدلول باطني، بيْدَ أنه ساد جدل معمَّق في الفكر أساسه سؤال محوري: هل على اليهودي أن يتدخل في التاريخ ويُسهم في صنعه أم تقتضي الحال أن يتمركز خلاصه في

الروح؟ في البدء خلص ذلك الجدل إلى تمحور النظر للتاريخ ضمن أطر ثلاثة: أن الخلاص يأتي بشكل إعجازي، وأنه يتمخض عن عالم طوباوي، وأن المسيا (المخلّص) يأتي في أعقاب أبوكاليبس كارثي. لكن تلك القناعات عصفت بها تحولات شهدتها الساحة الغربية، تمثلت في احتدام موجة العداء لليهود مع اللاسامية، حيث بلغ المقت الأوروبي مداه في ما عُرف بالمحرقة. هذه المجريات المستجدة دفعت إلى تطور رؤى سياسية باتت ترى في الصهيونية سبيل الخلاص الموعود، وإن تواصلت معارضة ذلك مع تيارات أورثوذكسية رأت في قيام دولة لليهود، في غياب المسيا الحقيقي، هو ضربٌ من الخيانة والتنكر لليهودية.

وما كانت نداءات العودة إلى صهيون، «العام القادم في أورشليم»، لتلقى قبولا في أوساط اليهود لولا حصول انقلاب في قناعة كثير من الحاخامات، باتوا يرون الخلاص سياسيا وليس روحيا كما سلف. عندها تزاوج الوعي السياسي (الصهيونية السياسية) بالوعي الديني (الصهيونية الدينية) واشتركا معا في السير صوب أورشليم. جرى التقليص من غلواء الخلاف المستحكم بين الطرفين، المتدين والعلماني، بإرساء ما يشبه الصلح البراغماتي بين الثنائي، ومن هذا الباب كان البعد الديني حاضرا في الصهيونية حتى وإن لم تُتَح له فرصة القيادة.

بقي المنزع التأويلي في اليهودية حاضرا إلى حدود الحقبة المعاصرة، حيث أن جمعا واسعا من المثقفين اليهود ومع إيمانهم بسطوة المقولات الدينية، على شاكلة مارتن بوبر، أو ملاحدة عتاة، مثل أرنست بلوخ، قد جمعت بينهم رابطة رومانسية موحّدة في معاداة الرأسمالية، وتقاسموا رغبة عارمة في تشييد مجتمع جديد، تتجسّد فيه مملكة الرب على الأرض، مملكة العدل والحرية. نجد الفيلسوف الروسي نيقولاي برديائيف يذهب مذهبا داعما يلتقي فيه التأويل الديني مع العالم الراهن، مرتئيا أن البروليتاريا في مذهب كارل ماركس هي إسرائيل الجديدة، وهي شعب الله المختار، المحرِّرة والمشيدة للمملكة الأرضية الموعودة، وما الشيوعية سوى شكل معلْمَن للعهد الألفي اليهودي. حتى أن المفكر ميكائيل لوفي يتحدث عن تجانس خفي ومضمر بين المسيحانية اليهودية واليوطوبيا الفوضوية، أدى إلى تحالف وثيق تحققت نبوءته فوق أرض فلسطين.

التحول الكبير في الفكر اليهودي، الذي يرصده الكتاب، تدشّن مع التطورات السياسية الكبرى التي هزت أوروبا في أعقاب تضييق الخناق على اليهود مع اللاسامية والتي بلغت مداها مع حدث المحرقة. دفعت تلك الأوضاع إلى طرح تساؤلات عميقة في أوساط الإنتلجنسيا اليهودية التي ركنت إلى فكر الحداثة والعقلانية والعلمانية. بدأ الحديث عن «أوسشويتز»، رمز المحرقة، من أمريكا في أوساط المثقفين اليهود ممن رحلوا عن ألمانيا وتحلقوا في البداية حول مدرسة فرانكفورت ثم لاحقا في النيو سكول للأبحاث الاجتماعية في نيويورك. فقد كانت حنة أرندت وهانس جوناس وهربرت ماركيوز من الطلاب المباشرين لهايدغر، المهندس البارز للعقل الألماني الحديث الذي بات متهَما بالتنكر للعقلانية وموالاة الآلة النازية. طُرحت تساؤلات كبرى عن فحوى تلك المفاهيم في ظل واقع الفرز المفروض على اليهود. فقد اعتبر أدورنو وهركهايمر معتقل «أوسشويتز» ليس نتاجا لانحدار العقل ولكنه تضخم للعقلانية الأداتية. وقد لعبت حنة أرندت دورا مهما في محاكمة العقلانية الألمانية في ضوء ما حدث في «أوسشويتز»، وكانت من أوائل من أثار قضية ما جرى في «مصانع الموت»، بغرض تفهم المجزرة المصنّعة عقليا (ص: ٢٦٥).

ومن جانب آخر، تطارح الفكر اليهودي مسألة الألوهية والشر. ففي محاضرة ألقيت عام ١٩٨٤ تساءل هانس جوناس عن «مفهوم الألوهية بعد أوسشويتز»، وعن أفول الدين وعن صمت يهوه؟ إجابته مغايرة عن إجابة أدورنو أو أندرس، ليس في جعبته نفيٌ لوجود الرب، بل إعادة تفكير في حضوره من خلال المصادر القبالية. فالمحرقة لا تمثل سقوطا مفاجئا في البربرية، بل بالأحرى هي الجانب الخفي، والانعطافة الجدلية للحداثة.

---

– الكتاب: «الفكر اليهودي في القرن العشرين».
–المؤلف: أدريانو فابريس.
– الناشر: كاروتشي – روما، ٢٠١٦.
– اللغة: الإيطالية.
– عدد الصفحات: ٣٤٣ صفحة.

# «بابا العلوم: أنريكو فيرمي وولادة العصر النووي».. لجينو سيكري وباتينا هورلن

مُحمَّد السماك *

**ماذا لو تمكَّنتْ ألمانيا في العهد النازي، وتحت قيادة أدولف هتلر، من إنتاج القنبلة النووية قبل الولايات المتحدة؟ أيُّ عالم كان يمكن أن يكون قائماً اليوم؟.. يطرحُ هذا السؤال كتابٌ جديدٌ عن أسرار مرحلة الأبحاث الأولية التي سبقت إنتاج القنبلة الذرية في الولايات المتحدة وإطلاق اثنتين منها على مدينتين في اليابان؛ هما نكازاجي وهيروشيما؛ مما أدى لاستسلام اليابان، وإلى طي صفحة الحرب العالمية الثانية في المحيط الباسيفكي.. ينطلقُ هذا السؤال من قصة كانت مجهولة إلى أن نشر تفاصيلها ووقعائها الدكتور جينو سيكري والدكتورة باتينا هورلن في كتابهما الجديد: «بابا العلوم: أنريكو فيرمي وولادة العصر النووي».**

ولا بد أولاً من كلمة عن مُؤلفيْ الكتاب؛ لأنهما يشكلان معاً جزءاً من القصة.. فالدكتور سيكري هو أستاذ العلوم في جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة. وكان عمّه إميليو سيكري أحد تلامذة العالم النووي الإيطالي انريكو فيرمي عندما كان يدرِّس في جامعة روما في إيطاليا، موطنه الأصلي، قبل هجرته إلى أمريكا؛ وبذلك يكون أحد مؤلفي الكتاب قد جمع إلى جانب معلوماته العلمية، الوقائع التاريخية عن أول اكتشاف نووي. وأهمية أولوية هذا الاكتشاف أنه لم يكن اكتشافاً أمريكيا، ولا سوفياتيا، ولا ألمانيا. بل كان اكتشافا إيطاليا.

أما الدكتورة بتينا هورلين؛ فقد كانت أستاذة العلوم في جامعة «بان» في الولايات المتحدة، وعملت طويلا في المدينة النووية الأمريكية السرية في لوس ألاموس. ولذلك فإنها عندما تكتب عن هذا الموضوع فانها تعرف ماذا تقول. وفي العام ١٩٣٨، أجرى العالم الإيطالي فيرمي مع عدد من مساعديه تجربَة في مختبر الجامعة التي كان يدرّس فيها العلوم في العاصمة الإيطالية روما. وحصل بسببها على جائزة نوبل للعلوم. وتقوم أهمية الاكتشاف العلمي على إنتاج الأشعة من خلال تبطيء حركة النيوترونات في الذرة. وهي الخطوة الضرورية الأولى للتفجير النووي. غير أن فيرمي وزملاءه اعتقدوا -خطأ- أنَّ هذا الاكتشاف يصنع موادَ أولية جديدة بعدد أكبر من ذرات اليورانيوم (المادة ٩٢). وعندما نُشرت وقائع هذا الاكتشاف العلمي، اقترح عدد من الصحفيين الإيطاليين الموالين للرئيس الفاشي موسوليني أن يطلق اسم موسوليني على المادة الجديدة المكتشفة.

غير أنَّ فيرمي لم يكن مهتما -وربما لم يكن يُدرك- البُعد التفجيري الهائل للاكتشاف الجديد. ولو علم بذلك، وبالتالي لو علم به موسوليني، لنقلت المعلومات الأولية عن صناعة القنبلة الذرية منذ عام ١٩٣٥ إلى ألمانيا، ولتمكن هتلر في ذلك الوقت من امتلاكها؛ الأمر الذي كان يمكن أن يغيِّر مجرى التاريخ.

ويؤكِّد الكتاب أن العلماء الألمان لم يصلوا إلى ما وصل إليه العالم الإيطالي فيرمي إلا بعد مرور أربع سنوات.. أي بعَد فوات الأوان! ويروي الكتاب كيف اضطر فيرمي إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة لتدريس العلوم في جامعة شيكاغو؛ حيث اكتشف هناك أهمية وخطورة ما توصل إليه في روما. ولكنه منذ ذلك التاريخ رفع صوته محذرا الإنسانية من أهوال ترجمة الاكتشاف العلمي إلى سلاح. يومها قال عبارته المشهورة: «ليس للعلماء حقّ على المخلوقات». بمعنى أنه ليس لعلماء الذرة الحق في إنتاج سلاح يؤدي إلى قتل المخلوقات (البشرية والحيوانية والنباتية) بشكل جماعي وعشوائي. ولكنَّ الولايات المتحدة مضت قدما في أبحاثها حتى أنتجت القنبلة، وجربتها في صحراء المكسيك في العام ١٩٤٥، بعد أن وظفت الاكتشاف العلمي للعالِم الإيطالي الأصل في برنامجها النووي.

وبعد التأكد من نجاح التجربة، وفي السادس والتاسع من أغسطس ١٩٤٥، ألقت الولايات المتحدة قنبلتين نوويتين على اليابان. استهدفت الأولى مدينة هيروشيما، واستهدفت الثانية مدينة نكازاجي. أدى ذلك إلى مقتل أكثر من مائة ألف ياباني في هذين اليومين. وقتل التلوث النووي فيما بعد عددا مماثلا. أما الرجل الذي قاد عملية إلقاء القنبلة توماس ويلسون فيربي، فقد مات في فراشه الوثير في مارس ٢٠٠٠ (أي بعد ٥٥ عاما) عن عمر ناهز الواحد والثمانين وهو قرير العين مرتاح الضمير.. بالنسبة له، كان يؤدي مهمة عسكرية. وإن نجاح المهمة وضع حدا للحرب العالمية الثانية. ولكن بالنسبة للمسؤولية الإنسانية، فإن السؤال الذي لا يزال يطرح حتى اليوم هو: من المسؤول؟. هل تقع المسؤولية على الرئيس فرانكلين روزفلت الذي أطلق مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية؟ هل تقع المسؤولية على العالم الفيزيائي اليهودي ألبرت آينشتاين الذي أقنَع روزفلت بإمكانية وبضرورة إنتاج القنبلة؟ هل تقع المسؤولية على العالم النووي -الألماني الأصل- روبرت أوبنهيمر الذي كان قائدَ فريق العلماء في لوس آلاموس الذي أنتج القنبلة؟ هل تقع المسؤولية على الرئيس الأمريكي هاري ترومان الذي أعطى الأمر بإسقاط القنبلتين؟ كان آينشتاين يهوديا ألمانيا، وكان يعرف أن العلماء الألمان يعملون على إنتاج القنبلة، وأنهم قد يتوصلون إلى صنعها. وبذلك أقنع الرئيس روزفلت باستعجال إنتاجها واستخدامها لحسم الحرب لمصلحة الولايات المتحدة. وكان أمل آينشتاين هو أن تلقى القنبلة الأولى على مدينة ألمانية وليس على مدينة يابانية. غير أن الخوف من أن يصيب الإشعاع النووي الشعوب الأوروبية المتاخمة لألمانيا أدى إلى اختيار الهدف الياباني حيث تتوافر ضمانات كافية بأن يكون كل الضحايا المباشرين وغير المباشرين من اليابانيين وحدهم.

في شهر مارس ١٩٤٥ أمطر الأمريكيون العاصمة اليابانية طوكيو بالقنابل، فقتل ٨٥ ألف ياباني. حمَّل هذا القصف حكومة الإمبراطور هيروهيتو قبول البحث في شروط الاستسلام. مع ذلك أُلقيت القنبلة الأولى، ثم أتبعت بالثانية بعد ثلاثة أيام، وفي اليوم السادس اضطرت اليابان إلى الاستسلام بلا قيد أو شرط. لم يكن استخدام السلاح النووي ضروريا لحمل اليابان على الاستسلام. ولكنه كان أداة لحملها على قبول استسلام مذل، يعزز الموقف الأمريكي التفاوضي مع الاتحاد السوفييتي السابق على اقتسام تركة عالم ما بعد الحرب. ولم يكن استخدام السلاح النووي ضد اليابان هدف آينشتاين. كان هدفه الانتقام من الألمان. ولقد أعرب عن خيبة أمله بعد أن اطلع على النتائج المروعة لقنبلة هيروشيما بقوله: «لقد كان الأفضل لي لو عملت في تصليح الساعات بدلا من العمل

في علوم الفيزياء». وهذا ما كان سبقه إليه العالم الإيطالي فيرمي، كما ينقل ذلك عنه مؤلفا الكتاب: «بابا العلوم» الدكتوران سيكري وهورلين.

ولكن قبل أن يعهد إلى توماس فيربي بالمهمة «رقم ١٣» بترؤس الفريق الذي أسقط القنبلة على هيروشيما، اشترك -فيربي- في الحرب على الجبهة الأوروبية وقام بثلاث وستين عملية ضد مدن ألمانية؛ منها بصورة خاصة مدينة درسدن التي تحوّلت مبانيها إلى أنقاض. وقد أدى تفاهمه مع الطيار العسكري بول تيبتس ونجاحهما معا في إصابة الأهداف الألمانية المقررة إلى اختيارهما للمهمة على هيروشيما. أخضع الفريق إلى تدريبات مكثفة في جزيرة تنيان في المحيط الهادئ، وأجريت لعناصره (١١ طيارا) فحوصات وتحليلات نفسية معمقة، قبل الانطلاق بطائرة إينولاغاي، التي يحتفظ بها سلاح الطيران الأمريكي حتى اليوم، في رحلة استغرقت ١٣ ساعة دون توقف إلى هدفها المنكود. لذلك أطلق رقم ١٣ اسما على تلك المهمة التي وضعت العالم أمام مرحلة جديدة من العلاقات اللاإنسانية.

ولكن قبل أسابيع قليلة من ذكرى إسقاط أول قنبلة نووية أمريكية على مدينة هيروشيما في اليابان (في السادس من أغسطس ١٩٤٥) تساءل وزير الدفاع الأمريكي الأسبق روبرت مكنمارا -الذي تُوفِّي مُؤخرا: هل انتصار الولايات المتحدة في الحرب يبرّر القصف النووي لهيروشيما ونكازاجي؟. وذهب مكنمارا بطل الحرب الأمريكية في فيتنام إلى أبعد من ذلك عندما وصف مساهمته في المسؤولية العسكرية عن القصف النووي بأنها «جريمة حرب». لم يسبق لوزير دفاع أمريكي أن مارس فضيلة النقد الذاتي كما فعل مكنمارا. فهو لم يقتصر على انتقاد إلقاء القنبلتين على اليابان وعلى مسؤوليته في تلك الجريمة الإنسانية الكبيرة، ولكنه انتقد كذلك الحرب على الفيتنام وحمّل نفسه مسؤولية ما وصفه بجريمة التشجيع على تلك الحرب.

وفي الأساس، تنطلق مأساة التوظيف الأمريكي للسلاح النووي ليس فقط من مبدأ استخدام هذا السلاح المدمر، ولكن من مبررات استخدامه أيضا. فالولايات المتحدة لا تزال حتى اليوم تمتنع عن كشف الوثائق السرية التي تجيب عن السؤال الكبير التالي؛ وهو: هل كانت اليابان مستعدة للاستسلام قبل إلقاء القنبلة؟ وهل كانت هناك خيارات أخرى أمام الولايات المتحدة لحمل اليابان على الاستسلام دون اللجوء للسلاح النووي؟. وفي العام ١٩٤٦، أعدت وزارة الدفاع الأمريكية تقريرا سريا بعنوان: «جهود اليابان لإنهاء الحرب».

اعترف التقرير الذي لم يذع إلا في عام ١٩٩٥ بأنه من المؤكد أن اليابان كانت على استعداد للاستسلام قبل ديسمبر ١٩٤٥، وربما قبل الأول من نوفمبر ١٩٤٥ حتى ولو لم تُلقَ القنبلتان النوويتان عليها، حتى لو لم تدخل روسيا الحرب، وحتى لو لم تهدد بالاجتياح العسكري».

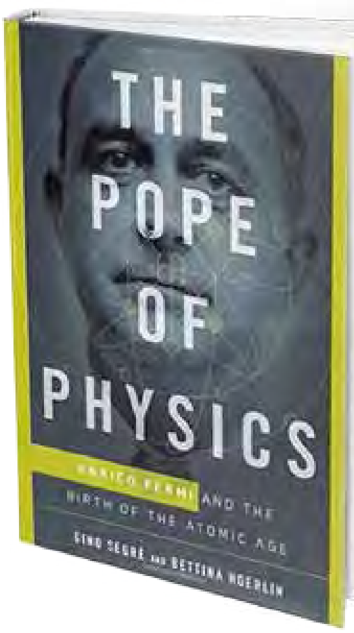


إذن؛ لماذا أصرَّ الرئيس الأمريكي هاري ترومان على إلقاء القنبلتين على هيروشيما ونكازاجي؟ للإجابة عن هذا السؤال، لا بد من الإشارة إلى أن الولايات المتحدة كانت تمكّنت من حلّ الرموز السرّية -الشيفرة- الخاصة باليابان أثناء المراحل الأخيرة للحرب، وفي ١٢ يوليو ١٩٤٥ كشفت واحدة من تلك الرسائل عن قرار الإمبراطور نفسه بالتدخل لإنهاء الحرب. كانت اليابان تعرف أن الرئيس السوفييتي الجنرال جوزف ستالين وعد بدخول الحرب ضدها بعد ثلاثة أشهر من استسلام ألمانيا في الثامن من مايو ١٩٤٥. ولقد حصل ذلك بالفعل في الثامن من أغسطس من ذلك العام. وكان ذلك وحده كافيا لإنهاء الحرب ولفرض شروط الاستسلام على اليابان أمام الدول الكبرى الثلاث بريطانيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة خاصة بعد استسلام ألمانيا. غير أنه كانت للرئيس ترومان حسابات أخرى. لم يكن ترومان يحتاج إلى القنبلة النووية لإخضاع اليابان بعد هزيمة ألمانيا بقدر حاجته إليها لتخويف الاتحاد السوفييتي وإرهابه. جرت أول تجربة ناجحة للقنبلة في ١٦ يوليو ١٩٤٥. وفي اليوم التالي كان ترومان مجتمعا في بوتسدام مع ستالين وتشرشل.

ويروي اللورد ألن بروك رئيس أركان القوات البريطانية في مذكراته أن تشرشل فوجئ باللهجة الفوقية وبالتصرّف الاستعدائي للرئيس الأمريكي وهو يحاور ستالين. فقد استفز ترومان الرئيس السوفييتي دون مبرّر وتوجه إليه بطلبات مستحيلة، بل تعجيزية. ولم يفهم تشرشل هذا التحول في الأسلوب التفاوضي لترومان إلا في اليوم التالي عندما عرف بنجاح التجربة النووية الأمريكية. تكشف الوثائق الأمريكية أن وزير الخارجية في ذلك الوقت «بيرنز» أبلغ الرئيس ترومان «بأن القنبلة النووية ستضع الولايات المتحدة في موقف تفاوضي قوي يمكّنها من إملاء شروطها لإنهاء الحرب». كذلك يروي العالم النووي الأمريكي «لي زيلارد» في مذكراته التي نَشرها بعنوان «التاريخ الشخصي للقنبلة النووية»، أنَّ الوزير بيرنز اجتمع به في البيت الأبيض، وأنه أثناء الاجتماع لم يثر بيرنز ما إذا كان استخدام القنبلة ضد المدن اليابانية ضروريا لكسب الحرب، ولكنه كان يؤكد على أن «امتلاكنا للقنبلة وإظهار فعاليتها سوف يجعل الاتحاد السوفييتي أكثر طواعية في أوروبا». وهكذا كان.

جرى توظيف الإعلام على أوسع نطاق لإقناع الرأي العام الأمريكي بأن استخدام القنبلة كان ضروريا لتسريع إنهاء الحرب، وأن ذلك وفّر على الولايات المتحدة أكثر من مليون قتيل!! ولا يزال معظم الرأي العام الأمريكي حتى اليوم مؤمنا بهذا التوجُّه.

لقد تعلَّم العالم من مأساة هيروشيما-نكازاجي درسيْن كبيريْن؛ الدرس الأول: إنساني؛ ويتعلق بمدى الخسائر البشرية التي تسبب بها الانفجار النووي حيث لا يفرِّق بين مدني وعسكري، أو بين إنسان وحيوان، أو بين بناء وشجر؛ فالموجة النووية تسحق كل شيء وتبيد كل حياة. أما الدرس الثاني، فهو أن الردع النووي كان وهماً.

فالنادي النووي توسَّع منذ ذلك الوقت ليتعدى روسيا وفرنسا وبريطانيا ليشمل العديد من الدول النامية بما في ذلك الهند والباكستان. ولقد شمل إسرائيل منذ عقود أيضا، حيث يقدر حجم ترسانتها النووية بأكثر من ٢٠٠ قنبلة. ولا يزال النادي يتوسع سرًا وعلنا؛ الأمر الذي يشير إلى أن القوة التدميرية لأعضاء النادي النووي كافية لقتل كل إنسان على سطح الأرض ١٥ مرة على الأقل!

ويبقى تحذير الأب المجهول للقنبلة النووية العالم الإيطالي إنريكو فيرمي، الذي ينقل عنه مؤلفا الكتاب «بابا العلوم» رؤيته السوداوية التي حذَّر العلماء من خلالها من أن يمنحوا أنفسهم حقا إلهيا في قتل البشر.. غير أنَّ تحذيراته ذهبت سدى، ومن المهم أنَّ علومه لم تصل إلى ألمانيا الهتلرية، وإلا لكان العالم اليوم ليس العالم الذي نعيش فيه!

---

- الكتاب: «بابا العلوم: أنريكو فيرمي وولادة العصر النووي».
- المؤلف: جينو سيكري وباتينا هورلن.
- الناشر: هنري هولت وشركاه، ٢٠١٦.
- اللغة: الإنجليزية.
- عدد الصفحات: ٣١٥ صفحة.

* مفكر لبناني متخصص في دراسات العلوم والسياسة والفكر الإسلامي

# «بين الدَّيْن والشيطان».. لأدير تيرنر

مُحمَّد السالمي *

**تمَّ نشرُ العديد من الكتب حول أسباب وتداعيات الأزمة المالية للعام ٢٠٠٨، ولكن السؤال الذي يجب أن يُطرح: هل نحن حقا بحاجة إلى آخر؟ يأتي تيرنر في كتابه «بين الدَّيْن والشيطان» ليُعطي عرضًا مألوفا جدًّا للأزمة: القطاع المالي كبير جدًّا، لدينا الكثير من الديون، والنظام المصرفي ينبغي أن يُنظَّم بشدة. القوة الحقيقية لتيرنر هو الطرح المباشر لحججه، والإيجاز النسبي في كتاباته، على عكس العديد من المجلدات ما بعد الأزمة.. ومثل العديد من المنظمين والاقتصاديين، فإنَّ تيرينر يحلُم بعالم سيكون للأوصياء فيه ما يكفي من المعلومات في الوقت الحقيقي ليتم تنبيهك بالمخاطر. وهذا من شأنه أن يُسهم في توجيه سفينة التمويل بعيداً عن الصخور، والإبحار في المياه الهادئة. يقول تيرنر إنَّ جوهر الأزمة كان يكمُن في مبدأ دعه يعمل (laissez-faire)؛ لذلك يجب السيطرة على النظام المالي حتى تتمكن البنوك من إنتاج النوع الصحيح من الدَّيْن.**

إنَّ خبرة تيرنر في مجال الائتمان أطلعته على أسرار المهنة، وكيفية التعامل معها، وتجنب الأفكار السيئة التي قد توجهنا إلى المصائب عند التعامل مع الديون. فبعد انهيار بنك ليمان براذرز، تم تعيين تيرنر رئيساً لهيئة الخدمات المالية في المملكة المتحدة ما بين عامي ٢٠٠٨ و٢٠١٣م. وكتابه الأخير «بين الدَّيْن والشيطان»، يعطينا تصورا شاملا لأزمة الديون والحلول الممكنة لها. يعد هذا الكتاب من أفضل الكتب الاقتصادية وأكثرها مبيعاً للعام ٢٠١٦ حسب المنتدى الاقتصادي العالمي وبلومبيرج.

وفي الفصل الأول من كتابه، يشرح تيرنر طفرة النمو في النظام المالي وتقييم الثقة قبل الأزمة؛ حيث يَرَى أنَّ الأسواق هي في الواقع غير كاملة، ويحتمل أن تكون غير مستقرة، وعلى الرغم من كونها ناقصة، إلا أنها قد تلعب دورا مفيدا. كما أنه يحذر من الوهم بأنه يمكننا أو يجب علينا المتابعة للوصول للكمال المطلق.

ويركِّز الفصل الثاني من الكتاب على المحرك الأساسي لعدم الاستقرار المالي؛ ألا وهو الخلق المفرط للائتمان. وهذا ما يفسر كيف أن المصارف وبنوك الظل تخلق الائتمان والمال، وما هي الآثار الإيجابية والسلبية النابعة من تلك القدرة. ويحدِّد ما هي الأسباب الكامنة وراء هذا النمو، وذلك نتيجة كثافة الائتمان، وشدة تراكم الديون، والذي أدى بدوره إلى ديون مفرطة على مدى نصف قرن من الزمان. وهذا ما يفسر أنه لا يمكننا أن نترك أي كمية من القروض التي أنشئت. ويختم الكاتب في هذا الفصل بوصف المصادر المحتملة البديلة لنمو الطلب الكلي، والخطر الذي سنواجهه ما لم تكن هناك سياسات جذرية لهذه المشكلة؛ حيث يُمكن أن نعاني من كساد عالمي أو نقص مزمن في الطلب.

وفي الفصل الثالث من الكتاب، يُفسِّر تيرنر دور خلق الائتمان في التنمية الاقتصادية وتأثير تدفقات رأس المال الدولي على الاقتصاد. ويشرح كيف استخدمت البلدان النامية الأكثر نجاحا طريق الائتمان لتعزيز النمو الاقتصادي، كما أنه يُحدِّد أيضا الأخطار المحتملة في سلك هذا الاتجاه. كما يطرح آراء الاقتصاديين والسياسيين حول الخيار الأمثل من تجزئة النظام المالي العالمي أو تحقيق التكامل دون حدود؛ حيث هذه القضية تعتبر حالة خاصة لمنطقة اليورو، التي يعيبها تصميمها السياسي للتعامل مع العواقب المترتبة على القروض الخاصة غير المستدامة، وأيضاً تدفقات رؤوس الأموال. وبذلك، لا يمكن لمنطقة اليورو أن تحقق نجاحا اقتصادياً دون إصلاح جذري.

وفي الفصليْن الرابع والخامس من الكتاب، يطرح الكاتب بعض الخطوات التي يجب اتخاذها لحل الآثار المترتبة على السياسات السابقة؛ ففي الفصل الرابع يطرح تيرنر بعض السياسات اللازمة لبناء اقتصاد يكون فيه الائتمان أقل كثافة في المستقبل، والحد من مخاطره. بينما يتناول في الجزء الخامس كيفية الهروب من الديون التي خلفتها الأخطاء السياسة الماضية وكيفية معالجة مخاطر الركود العالمي.

الكتاب مليء بالتحليل المفصل للمشاكل التي يُعاني منها النظام المصرفي الحالي؛ حيث ميل البنوك إلى خلق الكثير من المال والائتمان والديون بكميات مفرطة. ووضع معظم هذه الأموال في أسواق العقارات والأسواق المالية بدلا من تمويل الاستثمار في الاقتصاد الحقيقي. وفي صميم عدم الاستقرار المالي في الاقتصادات المتقدمة، تكمُن المشكلة في التفاعل بين عرض الائتمان المصرفي والعرض غير المرن من قبل العقارات (التغير في سعر العقارات لا يؤثر على العرض). فدائرة الائتمان وأسعار العقارات ليست مجرد جزء من قصة عدم الاستقرار المالي في الاقتصادات المتقدمة، فهي على مقربة من القصة كلها. حيث إنَّ هناك ثلاثة دوافع كامنة وراء زيادة كثافة الائتمان؛ ألا وهي: أهمية العقارات، والخلل في توازن الحساب الجاري العالمي، وزيادة عدم المساواة. كما أن نمو الائتمان قد لا يدعم استثمار الرأس المال الإنتاجي.

كانت البنوك وسطاً لنمو الائتمان في القطاع المالي. ومع ذلك، فإنَّ البنوك لا يُمكن أن تلام وحدها على الأزمة؛ حيث إنَّ البنوك لا تأخذ فقط الودائع من الأسر وتقرض المال لرجال الأعمال، ولكنها أيضاً تخلق المال، والائتمان، والقوة الشرائية. كما أنَّ الكاتب يرى أن إدماننا على الديون الخاصة هو أحد الأسباب في الأزمة المالية؛ حيث إنَّ الديون يمكن أن تكون خطرة، حتى لو كان جميع

المصرفيين على مستوى من المصداقية والمسؤولية والمهنية، وحتى لو كانت قروض الأفراد ذات فائدة اجتماعية أو اقتصادية.

الائتمان الموجَّه للاستثمارات المنتجة لم يلعب دورا في البلدان النامية الناجحة، ولكن الأسواق الناشئة الآن أيضا تواجه تحديات كبيرة. في الماضي، استخدمت البلدان النامية الناجحة طريق الائتمان بدلا من السوق الحرة لتعزيز تراكم رأس المال السريع والمثمر، وقد وتضمَّنت سياساتها إصلاح الأراضي، والسياسة الصناعية، وتحسين النظام المالي. ففي كوريا كان الائتمان متاحاً لقطاع الصناعة التحويلية، وقطاع الصادرات، وليس متاحا للتطوير العقاري وقطاع الواردات.

يطرح تيرنر عدة نقاط في كتابه يجب إعادة النظر حولها؛ حيث إنَّ الهدف لا يمكن أن يكون ببساطة جعلَ النظام المالي أكثر استقرارا، ولكن يجب أن تكون هناك إدارة فعالة لكمية الائتمان وتأثيرها على الاقتصاد الحقيقي؛ حيث يتطلب الإصلاح الفعال رفض ثلاثة مفاهيم شائعة؛ أولاً: تكامل السوق وزيادة السيولة فيه دائما ما يحسن كفاءة التوزيع أو التخصيص. ثانياً: التضخم المنخفض والمستقر كاف لضمان الاستقرار المالي والاقتصادي. وثالثاً: إنَّ نمو الائتمان أمر حيوي للنمو الاقتصادي.

يجب أن تكون هناك عدة تغييرات رئيسية للتنظيم المالي؛ حيث ينبغي أن يكون رأس المال المطلوب لدعم الإقراض العقاري أعلى من المستوى الحالي بكثير. كما يجب تقييد الديون قصيرة الأجل من خلال تجزئة النظم المالية الدولية، واستخدام رأس المال كعازل لمواجهة التقلبات الدورية. وأيضاً، التغلب على جمود الدَّيْن عبر إنشاء نظام أكثر استقرارا، وذلك من خلال السندات الحكومية المرتبطة بالناتج المحلي الإجمالي.

على رغم، وجود تحيز في السوق الحرة نحو الإقراض العقاري، هناك ما يبرر الإقراض لأهداف أخرى مثل التنمية المستدامة، ودعم الشركات الصغيرة والمتوسطة.

ومن أجل الهروب من عبء الديون، تذهب البلدان المتقدمة للموازنة بين تقييد خلق الائتمان الخاص وإعادة الطلب من خلال طبع النقود. كل الأسواق والحكومات يمكن

أن تفشل؛ لذلك يجب أن تعكس السياسة المستقبلية المثلى بين الجمع بضوابط أكثر صرامة في خلق الائتمان الخاص مع استخدام منضبط للنقود الورقية عند الحاجة.

ومن الحلول التي يدعو إليها تيرنر فكرة حظر البنوك من خلق المال. ولكنه بعد ذلك يدعو بقوة إلى حاجة الدول لخلق المال وتوزيعه في الاقتصاد الحقيقي، سواء من خلال الإنفاق الحكومي أو المدفوعات المباشرة للمواطنين.

كتاب «بين الدَّيْن والشيطان» يناقش تاريخا طويلا من المقترحات لإزالة قدرة البنوك على خلق النقود. فخلال فترة الكساد العظيم في ١٩٣٠، دعا عدد من كبار الاقتصاديين الأمريكيين إلى هذه السياسة، حتى تمَّ عرضه على الرئيس روزفلت كخطة لإنعاش الاقتصاد. منذ ذلك الحين، عادت هذه الفكرة إلى الظهور مجدداً من قبل عدد كبير من الاقتصاديين في العالم، وكان آخرها ورقة عمل من قبل صندوق النقد الدولي «إعادة النظر في خطة شيكاغو».. يقول تيرنر في مناقشته لهذه المقترحات ما يأتي: «حتى لو كنا نرفض التطرف من خطة شيكاغو (الاقتراح الأصلي لمنع البنوك من خلق المال)، علينا أخذ الاستنتاج بعين الاعتبار؛ حيث يجب علينا إدارة وتقييد كمية الائتمان التي خلقتها الأنظمة المصرفية أو بنوك الظل».

ويرى منظِّرو الاقتصاد الكلي أن زيادة معروض النقود الورقية قد يؤدي إلى تضخم جامح، ولكن تيرنر يرى في كتابه عكس ذلك، حيث يقول: «هربا من الفوضى التي خلفتها أخطاء السياسات السابقة، نحتاج أحيانا لتغطية الدين الحكومي وتمويل العجز المالي من أموال البنك المركزي؛ حيث إنَّ طباعة الحكومة للمال هي البديل الممكن تقنيا إما للسياسة المالية أو النقدية لتغطية الطلب الكلي على الرغم من أن طبع النقود هو من «عمل الشيطان».

يجب على البنوك المركزية أن تخلق المال للاقتصاد الحقيقي؛ لذلك يرى الكاتب أن هناك حلا واضحا لهذه المشكلة؛ حيث يقول: «يُمكننا أن نحفز دائما الطلب الشكلي (nominal Demand) أي «الطلب منزوع التضخم» عن طريق طباعة النقود الورقية: إذا كانت هناك طباعة مفرطة، فسوف تولد لدينا تضخما ضارا. ولكن إذا كانت طباعة لكمية صغيرة فقط، فإنها سوف تنتج تأثيرات صغيرة فقط، ويحتمل أن تكون مرغوبة».

هذا الكتاب ينبغي أن يدرسه كل من يرغب في معرفة كيف يفكر أحد صانعي السياسة من ذوي الخبرة. فكتاب «ما بين الدَّيْن والشيطان»، يُشجِّع القراء للحصول على فهم أفضل حول المال والديون ودورات الائتمان. ليس فقط لأنه يوفر فهما دقيقا لكثير من المشاكل الناجمة عن النظام النقدي الحالي، ولكنه يقدم أيضا فهما ممتازا حول الحلول المحتملة ولماذا هذه الحلول هي الخطوة المنطقية التالية في تحقيق النمو وزيادة الاستقرار المالي؛ حيث يجب على النظام أن يتطوَّر حتى نتمكن من السعي نحو الأفضل لتجنب مثل هذه المشاكل في المستقبل.

---

- الكتاب: «بين الدَّيْن والشيطان: المال، والائتمان، وإصلاح التمويل العالمي».
- المؤلف: أدير تيرنر.
- الناشر: جامعة برنستون، ٢٠١٥.
- اللغة: الإنجليزية.
- عدد الصفحات: ٣٢٠ صفحة.

* كاتب عُماني

# مسار الفشل المدني في المنطقة العربية لكوبي ميخائيل ، ويوئيل جوزانسكى

أميرة سامي *

**يقدم المؤلفان كوبي ميخائيل ويوئيل جوزانسكى في هذا الكتاب «مسار الفشل المدني في المنطقة العربية» صورة عن الوضع الإقليمي في الشرق الأوسط من خلال ظاهرة «الفشل» الموجودة في دول المنطقة العربية والتي أدت إلى حدوث الأزمة العربية ، وتجلت بوضوح في المنطقة العربية عقب الاضطرابات والثورات العربية التي أدت إلى تفاقم الأزمة في البلدان العربية، فكان الغرض من هذا الكتاب هو محاولة فهم أسباب وخصائص هذه الظاهرة وأحداث انتشارها في المنطقة العربية، وتقييم آثارها وإسقاطاتها لما لها من تأثير مباشر على السياق الإقليمي والدولي بشكل عام والسياق الإسرائيلي بشكل خاص.**

ويرى المؤلفان أن حل الأزمة العربية هو التفكير المنطقي الجيوسياسي المنظم للمنطقة العربية، وأن السلطة المركزية لابد أن تكون ذات صلاحية محددة وواضحة، فمعظم الدول العربية مثل اليمن وليبيا وسوريا لم تعد موجودة في شكل دول متماسكة مع حكومة مركزية قادرة على ممارسة السيادة؛ بل أصبحت مسرحا لأعمال العنف والصراع الدموي، لهذا يوضح الكتاب أن من أهم أسباب فشل السلطة المركزية هو عدم وضوح الفترة الانتقالية للسلطة، وهذا الأمر هو الذي يسر على جماعات الجهاد والعناصر الخارجية التسلل إلى داخل بلاد المنطقة العربية وإحداث الزعزعة السياسية والعسكرية، وحشد الدعم المحلى ومعارضة السلطة المركزية وتقويض منهجية البنية السياسية للدولة.

والحقيقة أن ما كُتب حول موضوع «الدولة الفاشلة» كما أسماها المؤلفان "מדינה כושלת" كثير ومتداول على المستوى الأكاديمي والسياسي في الأوساط العلمية السياسية الغربية والأمريكية وأيضا العربية، خاصة بعد أن أصبح التداخل بين الخارج والداخل أمرا حتميا، وأصبح أداء النظم الحاكمة وما يحدث داخل الدولة غير منفصل بالتهديدات التي يواجهها كل من المجتمع الدولي والإقليمي.

تناول الكتاب المذكور مصطلح «الفشل» وهو ترجمة حرفية لمصطلح "הכישלון" الذي يعني حرفيا الفشل- الإخفاق - التعثر - الضعف- الوهن بجوانبه المختلفة التي ظهرت في المنطقة العربية والمؤشرات الدالة عليه والجذور المسببة للظاهرة؛ حيث ركزت العديد من الدراسات والمؤسسات البحثية المتخصصة على تطوير المعرفة ووضع التصورات المستقبلية للمساهمة في مواكبة المستجدات في هذا المجال، وجدير بالذكر أن الكتابات العربية قد تعاملت بقدر كبير من الحذر مع هذا المصطلح باعتباره مصطلحا دخيلا، وأدى ذلك إلى عدم المساهمة في تطوير الترجمة العربية للمصطلح فمثل هذه الترجمة الحرفية تمس بشكل مباشر ثوابت مقدسة مثل هيبة الدولة ومكانتها، بل وجودها من الأساس.

واستعرض المؤلفان المصطلحات المتشابهة الأخرى المعبرة عن الدول الفاشلة ومنها:

"מדינה כושלת"(Failed State) دولة فاشلة، "מדינה שברירית" (Fragile State) دولة هشة، " מדינה קורסת" ((Collapsed State دولة منهارة، "מדינה במשבר" ( Crisis State) دولة معرضة للخطر/ دول في أزمة "כישלון מדינתי" (State Failing) )فشل مدني خاص بالدولة)، "מדינה שברירית כתוצאה מקונפליקט (Fragile and Conflict-Affected " ) (دولة هشة متأثرة بالصراعات)

ورغم أن وصف الدولة الفاشلة باستخدام المصطلحات المختلفة ليس صعبا كما ذكر المؤلفان، وإنما تكمن الصعوبة على حد قولهما في المنهج والتحليل الذي يجب أن يُقاس به «فشل» الدولة ومدى ضرورة تمييز الأسباب والعوامل التي أدت إلى فشل الدولة ونتائج هذه العملية فإن أهمية الاهتمام بضبط المصطلحات والمفاهيم خاصة عند تناول هذا المصطلح بالدراسة ضرورة ملحة، فمصطلح «الدول الفاشلة» مصطلح اعتباطيّ ومطلق يسمح بوجود حالة من التداخل بين المفاهيم الواصفة لنفس الظاهرة مثل: الدول المقصرة أو الدول الواهنة أو الدول غير الفاعلة وغيرها.

وقد كتب ديفيد رايلى عن مستويات الفشل ودرجاتها المختلفة، وسلط الضوء أيضا على الصعوبات النظرية والمنهجية التي تساعد على التمييز بين أسباب الفشل، والعواقب الناجمة عن وجود مثل هذه الدول، أما تشارلز كول فقد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه ديفيد رايلى؛ حيث يرى أن تردد مصطلح «الدولة الفاشلة» منتشر جدا، وينطبق بشكل عام على مجموعة كبيرة من الدول، ويرى أن سمة الفشل لها أهمية «عالمية» فجميع الدول بها ظاهرة «الفشل» على مقاييس الفشل ولا يجوز إطلاقها على دولة دون الأخرى، هذا بالإضافة إلى أن استخدام المصطلح الشامل بشكل عام مانع لما يعنيه؛ حيث يؤدى إلى تفرد كل حالة على حدة ، فثمة بعض الخصوصية في كل حالة وإن اتفقت الحالات، وهذا ما جعل المجتمع الدولي يجد صعوبة في العثور على الحلول المناسبة لمختلف الدول؛ فهي ليست مشكلة أو قضية بسيطة التركيب، بل هي ظاهرة تتعدد داخلها القضايا والمشكلات .

في هذا الكتاب يُرجع المؤلفان سبب استخدام مصطلح «الدولة الفاشلة» إلى سببين رئيسيين:

الأول: شدة الآثار الجيوسياسية في سياق دول المنطقة العربية عقب الاضطرابات الإقليمية.

الثاني: أن مصطلح الدول الهشة واسع جدا ويشمل مجموعة كبيرة من الدول التي تختلف فيها درجات الفشل ما بين منخفضة ومنخفضة جدا، كما أن البلدان المصنفة بأنها هشة قد تشمل أيضا الدول المتقدمة، ورغم أن مصطلح الدول الهشة قد يعد مفهوما صحيحا من الناحية السياسية فإنه يحجب المشكلة وتحدياتها، فغالبا ما تعاني هذه الدول الهشة من آثار ما بعد الصراعات مما يفقدها للمؤسسية على المستويات السياسية والاقتصادية.

وطالب مؤلفا الكتاب بضرورة توضيح الفرق بين مفهومي «فشل الدولة» كدولة فاعلة و «السلطة» التي تعكس جودة عمل مؤسسات الدولة وتطبيق القوانين والأنظمة والسماح للدولة في ممارسة سيادتها، وفرض سلطتها، وتوفير الأمن الداخلي والخارجي، ومدى قدرة الدولة على توفير الخدمات الأساسية من تعليم وصحة واقتصاد ونظام، هذا بالإضافة إلى وجود الديمقراطية كأمر مشروع نابع من ثقة الشعب والمؤسسات وكشرط أساسي لتحقيق مفهوم السلطة في المجتمعات.

وبهذا التفريق بين المفهومين سيكون مصطلح الدولة الفاشلة من أكثر المصطلحات المرتبطة بمفهوم وظيفة السلطة؛ فالدولة قائمة تجمع بين مؤشرات دالة على الفشل، ومؤشرات دالة على الوظيفة في نفس الوقت، ذلك التداخل الذي يجعل عملية القياس عملية معقدة جدا؛ فقد تكون الدولة ذات مستوى مرتفع ولكنها في الوقت نفسه لا تستطيع الوفاء ببعض الخدمات العامة الأساسية لأفراد المجتمع.

وأوضح جوزانسكى وكوليك أن الفشل في الدولة يمنع التواصل في حالتين:

الحالة الأولى: ازدياد الأزمة وتفاقمها.
الحالة الثانية: انهيار الدولة.

الحالة الأولى وهي «ازدياد الأزمة وتفاقمها» تُوصف بها المؤسسات الحكومية غير القادرة على منع الأزمات الداخلية وتؤدى إلى عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين المواطنين، وهذه الدول تعانى من انخفاض مستويات التنمية البشرية والاجتماعية، وتكون السلطة فيها ضعيفة، بالإضافة إلى أن الصراعات الداخلية تقلل من قدرة الحكومة المركزية على توفير الخدمات الأساسية والأمن للمواطنين. ومن أمثلة هذه الدول: العراق، ولبنان، وفلسطين وغيرها.

الحالة الثانية هي «الانهيار»، وهي الحالة الأكثر تطرفا من ضعف الدولة، لأنها تعد المرحلة النهائية والأخيرة للأزمة، وفي مثل هذا الوضع تكون مؤسسات الحكومة المركزية غير قادرة على السيطرة بشكل فعال على أراضي الدولة، ولا تستطيع أن توفر الأمن والخدمات الأساسية للمواطنين أو ضمان وجود الشروط اللازمة لقيام الدولة، وذلك من خلال احتكار السلطة وفرض القانون والنظام – حتى لو كان ضئيلا للغاية- ومن أمثلة هذه الدول سوريا وليبيا واليمن.

أما التدخل الدولي لمساعدة الدول الفاشلة فهو محور نقاش وجدل على الساحة الدولية الجارية، وتحاول هذه الدراسة نفي فكرة أن التدخل الخارجي في شؤون الدول الواهنة يكون من أجل السيادة المطلقة على أراضيها، ورغم أن المبالغ الطائلة التي تنفقها الأمم المتحدة من أجل إعادة بناء الدول الفاشلة فنادرا ما تحصل على إنجازات واقعية من أجل حفظ عمليات السلام، وذلك لأن بناء الدولة الفاشلة يتطلب شرعية طويلة الأجل؛ بحيث تتمكن من بناء مؤسسات الدولة مثل الشرطة والنظام القضائي والصحي والاقتصاد الوطني لضمان مستوى يجعل الدولة تستطيع أن تلبي احتياجات السكان المحلية والأمنية التي عادة ما تتطلب تدخلا في صياغة الدستور لأجل تحقيق التوافق الاجتماعي والسياسي، فمعظم المحاولات لم يحالفها النجاح، وفى هذا الحين يجد المجتمع الدولي صعوبة في تشكيل خطة توافق الآراء بشأن التدخل وكسب تأييد القوى العالمية ومجلس الأمن الدولي، وتكون النتيجة الحروب والمآسي الإنسانية التي نشاهدها على الساحة العربية وفى مناطق متعددة بالشرق الأوسط لا نكاد نعرف عنها شيئا على مدى قرون.

وهنا نجد خلطا واضحا بين التعامل مع ظاهرة «الفشل» ومستوياتها وبين مفهوم «إعادة الإعمار» الذي يستلزم تنسيقا بين وحدات المجتمع الدولي والمنظمات التنموية.

أما عن أسباب فشل التدخل الدولي في الدول الفاشلة؛ فمنها اعتماد المجتمع الدولي على المنطق الغربي الليبرالي التقليدي في إعادة بناء الدول الفاشلة، وأن هذا المنطق الغربي لا يتناسب والثقافة السياسية في هذه الدول ولا يسمح بتحقيق الاستقرار للنظام مثلما حدث في أفغانستان وفلسطين. وعند فرض منطق السياسية الغربية فإن النتيجة سوف تكون الفشل وإسقاط النظام.

ومن الأمثلة البارزة على ذلك موقف الولايات المتحدة الأمريكية من مصر بعد إزالة حكم الإخوان المسلمين

من السلطة في يونيو عام ٢٠١٣م، هذا الأمر يعكس لنا سوء فهم الولايات المتحدة الأمريكية للثقافة السياسية في مصر والشرق الأوسط، هذا بالإضافة إلى التهديدات الإقليمية والعالمية بين القادة في المجتمع الدولي عقب التدخل في الصومال عام ١٩٩٣م وهجمات ١١ سبتمبر عام ٢٠١١م، تلك الأحداث التي جعلت الأمريكيين يأتون باستنتاج مفاده أن الدول الواهنة تهدد مصالحها الحيوية.

ويرصد الكتاب الدروس المستفادة من حالات التدخل الدولي لإعادة تأهيل الدول الفاشلة بأنها عملية معقدة ومعظمها مكلف للغاية، خاصة في ظل الارتفاع المتواصل للأسعار، ويذكر المؤلفان أنهما على علم بوجود دول غنية ذات خبرة في إعادة تأهيل الدول الفاشلة تريد إعادة بنائها، لكن بشرط أن ترى النتائج الإيجابية في نهاية المطاف، إلا أن العدو الأكبر من الجهود الرامية إلى إعادة التأهيل هو الرحيل المبكر جدا للهيئات الدولية التي تدعمها مما يؤدى إلى وقف المساعدات الدولية وفشل إعادة التأهيل.

– إن ظاهرة «الفشل» ليست مشكلة محلية فقط، بل هي تحد إقليمي ودولي لعدم الاستقرار في المنطقة العربية، ولها تأثيرها على المناطق القريبة والبعيدة منها، الأمر الذي يُظهر أهمية إشراك جميع الأطراف الدولية والإقليمية في مواجهة فشل الدول، سواء في الأهداف أو العملية ذاتها وذلك لضمان الاستقرار المجتمعي الذي سيمهد للاستقرار الأمني.

– وأشارت الخبرات السابقة في مجال إعادة تأهيل الدول الفاشلة إلى أن تجاهل مسئولي الإغاثة للبلاد التي تريد الحصول على المساعدة هو سبب المشاكل الأساسية من البداية، مما أدى إلى فشل جهود الإغاثة خلال فترة قصيرة.

وفي محاولة للتغلب على صعوبات هذه الظاهرة اعتمدت الدراسة في جمع مادتها العلمية على رصد أسباب فشل المخابرات والأوساط الأكاديمية في التنبؤ بالاضطرابات التي حدثت في الشرق الأوسط، وأشارت إلى تقارير البحوث المتنوعة الصادرة عن هيئات أمريكية ودولية في السنوات التي سبقت الاضطرابات وتناولت على نطاق واسع الإحباط واليأس وطغيان الفساد والحكام وعدم القدرة على تحسين الوضع الاقتصادي ما أدى إلى تصاعد حركات المقاومة والاحتجاج في الدول العربية.

– أما عن تقارير التنمية البشرية فقد أوضحت الوضع الحالي في الدول العربية وحذرت من آن لآخر بشأن أبرز المشاكل الأساسية، وقد قدم شمعون شامير صورة قاتمة للعالم العربي، ذاكرا أن هناك خرقا لمنهجية حقوق الإنسان، وأن الدول العربية تعاني من سلسلة من الإخفاقات الهيكلية والمؤسسية المهمة بسبب الصراعات الداخلية والفجوات الاجتماعية العميقة دون أي علاج، وجاء التحذير الوارد في هذه التقارير بالنص على أن مشاكل العالم العربي ستزداد سوءا إذا لم يتم علاجها، هذا لأن تجاهل نتائج الأنظمة العربية سيكون ثمنه فادحا، وهو تفاقم عدم الاستقرار في المنطقة العربية.

– كما أشارت بعض التقارير إلى التغيرات الديموغرافية الكبيرة التي تواجه العالم العربي، التي اشتملت على تغيرات النمو السكاني السريع، والمتوقع أن يرتفع مع التدهور البيئي في ظاهرة الاحتباس الحراري ونقص المياه والتلوث، وكلها تشكل تهديدا كبيرا على الأمن القومي في المنطقة العربية خاصة مع موجات اللاجئين المتزايدة والسياسات التمييزية، خاصة في القطاعات الأكثر ضعفا في المجتمع مثل النساء والأطفال واللاجئين والمتشردين.

– ركزت الدراسة على الاضطرابات الإقليمية التي حدثت في المنطقة العربية من منظور تاريخي، وأدت إلى عدم الاستقرار وانتقال عوامل الفشل من داخل الدول إلى الدول المجاورة، مستعرضة تهديدات التنظيمات الجهادية الإرهابية التي تسعى إلى إضعاف الأنظمة العربية من خلال فرض سلطتها وتوسعها في المناطق البعيدة عن سيادة الحكم لتصبح هذه المناطق أماكن لأنشطة المنظمات الإرهابية والإجرامية.

وأشار الكتاب إلى محاولات لخلق أيديولوجيات مختلفة للهوية الوطنية في العالم العربي فمثلا: أصبحت مصر تحاول تسليط الضوء على الإرث الفرعوني، بينما العراق على الإرث البابلي، وهذا لم ينجح حقا، حيث أخذت الأيديولوجيات تتنافس فيما بين العروبة والقومية والإسلام، ولم تقدم علاجا للانقسامات الإقليمية، بالإضافة إلى تقديم تحليل للتصورات التي تشهدها الساحة العربية ووضع الأنظمة الملكية في بعض الدول العربية والشرق الأوسط لا تحقق الاستقرار.

إن هذه الدراسة لم تركز بالقدر الكافي على الدور الذي يؤديه إهمال المجتمع الدولي لتوتر العلاقات بين القوى الإقليمية والدول المجاورة، مما يؤدى إلى تراكم عوامل الفشل داخل دول المنطقة العربية.

---

- الكتاب: مسار الفشل المدني في المنطقة العربية
- المؤلف: كوبي ميخائيل، ويوئيل جوزانسكى
- الناشر: معهد دراسات الأمن القومي في تل أبيب
- سنة النشر: يوليو ٢٠١٦
- اللغة: العبرية
- عدد الصفحات: ١٥٠ صفحة

* أكاديمية مصرية

# مشروعية التمرد في الثقافتين الأوروبية والروسية.. لألكسندر سكيبيرسكيخ

أحمد الرحبي *

**على خلفية الجدل المستمر حول الهوية الروسية والتجاذب بين قطبيها الكبيرين: الأوروبي والآسيوي، وأحقية أيٍّ منهما في الاستئثار بالروح الجامعة لهذا البلد الشاسع ولشعبه مُتعدد القوميات، انبثقت الدراسات الثقافية التي تُقارن وتميز بين ظواهر الحياة المتجذرة في الأرض الروسية وبين ظواهر الحياة الأوروبية، وهي دراسات ما برحت تثير اهتماماً حقيقياً لدى المُتابعين والقرّاء. ضمن هذا السياق يأتي كتاب «مشروعية التمرد في الثقافتين الأوروبية والروسية» للمحلل السياسي الروسي والأستاذ في جامعة البحوث الوطنية «المدرسة العليا للاقتصاد» ألكسندر سكيبيرسكيخ، حيث اختار لبحثه موضوعة التمرد: مقلباً في صفاته ومتابعاً تطوراته وراصدًا صور أبطاله ومحلقًا في آفاق حلوله ومستقرءا جمالياته وكاشفًا بواطنه.**

ينطلق الباحث الروسي من الاعتقاد بأنَّ المقاومة هي الوجه الآخر المقابل للسيطرة، وهي تيار طبيعي يعاكس الاحتواء الجبري، كما أنها الظلُّ الذي يتشكل عند ولادة الدولة ويمتد بامتداد سلطتها. ولذلك لا يتقيد التَّمرد بالزمنية ولا تتحدد إقامته في الجغرافية، فنجده موّزعا بين مُختلف أشكال النظم السياسية منذ نشأتها. ويؤكد المؤلف أنَّ الإنسان، ما إن يقع تحت ظل السُلطة ويشتبك بعلائقها، حتى ينزع إلى الابتعاد عنها وتجاوز مصيره المعقود بها، ودائماً ما يتم ذلك عبر المقاومة. فبرغم المحاولات التي بذلتها السلطة عبر التاريخ، والتجارب التي أجرتها لتقليص عنفها، ومع الدروس التي ألهمتها التخفف من قوتها ولجم شهوتها للاستيلاء، ومن ثم دفعتها إلى توسيع رقعة التوافق مع جمهورها، وإرساء مبادئ الشراكة في بلورة العملية السياسية وإدارتها، بالرغم من كل ذلك نجد أن التمرد لم يشهد عزوفاً ولم تجف مصادره، بل العكس من ذلك، بات يتخذ أشكالاً جديدة ويسلك دروباً مختلفة. يقول الباحث مبررًا هذه السيرورة للتمرد: «إن تعقد الحياة وتعقيد المؤسسات الكثيرة أدى إلى التشديد على الإجراءات الجبرية تجاه الإنسان والضغط عليه من أجل ضبطه».

يبحث الكاتب في أسس التمرد ومكوناته في التَّاريخ الأوروبي ليقارن بينها وبين أصول التمرد في الثقافة الروسية. وعبر تتبعه لتطور الحالة السياسية الأوروبية من خلال رهط من الفلاسفة والمصلحين وفقهاء القانون كأرسطو وشيشرون وميكافيلي وهوجو جروتيوس وتوماس هوبز وجان جاك روسو وميشيل فوكو، من خلال قراءته لهؤلاء المؤسسين يخلص المؤلف إلى الخاصية الأوروبية التي أبرمت العقد الاجتماعي وضوابط استخدام السلطة، ويفسر لنا المضامين التي احتواها هذا العقد وأكسبه القوة اللازمة لتسيير السياسة في المجتمع، سيرا توافقيا معقولا أدى إلى اعتراف من في السلطة بتطوعه لاستلام القيادة والمكوث في قمرتها، واعتراف من في ظل السلطة بتطوعه للإقامة خارج القمرة. ويلاحظ سكيبيرسكيخ – كما يلاحظ غيره من المُحللين – أن فكرة العقد الاجتماعي الأوروبي تتحلى بالعقلانية والعدالة والإنسانية، ومع ذلك فإنَّ الناظر إلى التاريخ الأوروبي يستوقفه حجم الانقلابات فيه وحروبه الطاحنة ويصدمه حطام كوارثه المنتشرة.

وبشكل مباشر لا تأويل فيه، يربط المؤلف أسباب التمرد الأوروبي بالتقاليد المتحكمة بالوعي، تلك التقاليد القاضية بضرورة الإصلاح المستمر والتنمية المتصاعدة والسعي الحثيث لإتمام ما نقص من النظام العام وتصويب أخطائه. فالتمرد في أوروبا إنما يتخلق لأجل توفير الظروف الأفضل لحياة المجتمع أو لتحسينها؛ وهو (التمرد) بحث دائب عن الأفكار الجديدة وعن الطرق الأجود لمعايشة العصر ولمعيشة الأفراد.

بالمقابل، وسعياً منه لمُقارنة الصيغة الأوروبية للتمرد بنسخته الروسية، يرّجح الباحث مشاعر الكراهية التي تستحوذ على المتمرد الروسي تجاه مؤسسات الدولة أو ممثليها، وهي مشاعر تتسم بالحدة والتشدد والراديكالية المثالية؛ وهي مشاعر مدمرة إذا ما تحررت وانطلقت، حيث تموت الرحمة تحت حوافرها الجامحة.

يتوصل المؤلف إلى استنتاج أكثر تجردًا لمشروعية التمرد، فيرسم له خطاً بيانيا متصاعدا، يكون فيه الخط الأفقي لقوة التمرد نامياً من المناطق الشرقية للعالم (البلدان النامية) ومتفتحاً في المناطق الغربية له (البلدان المتطورة). والحال كذلك في المحور الرأسي لهذا الخط البياني بحيث يصعد من جنوب العالم ليزدهر في شماله. وفضلا عن هذا يشير المؤلف إلى محدودية وبساطة جهاز السلطة في البلدان الغربية في حين نجده ضخما في البلدان الشرقية ويتطلب إجراءات جمة ومجاميع بشرية كبيرة تعمل لرفع أركانه وتثبيته كسلطة مكينة ذات شأن مهيب. ومع ذلك يبدو أن الوجه المهيب لهذه السلطة يستبطن نقيضه؛ فجيش الأفراد المنضوين تحت إمرته لا اعتبار لهم خارج السلطة وربما خضعوا في داخلها لظروف صعبة وبائسة.

يسلط الكتاب الضوء على شخصية المتمرد، عاقدا الصلات بين سمات الشخصية وخصوصية ثقافتها الأم والمكان الذي نشأت فيه حيث تشكلت تصوراتها للعالم. بعبارة أخرى يرسم لنا البحث بورتريه لشخصية المتمرد باعتباره باعثاً لانهيار السلطة بعد أن كان ضحية لإهمالها.

ويؤكد الباحث على أنَّ التقليد الأوروبي (الكلاسيكي) لصلة العلاقة بين السيد والخادم تقوم على نظام تعاقدي معروف وقارّ. فمن السهل أن يترك الخادم صاحبه ويرتبط بسيد آخر. إن الخادم في المعادلة الأوروبية يعرف ما عليه من واجبات وما له من حقوق، وبأنه ليس مجبراً على تحمل الإهانات من أحد، ويمتلك مساحة من الحرية ليتحرك ويناور فيها. إن أمام الخادم الأوروبي الفرصة

لأن يضجر ويصفق باب سيده وراءه من أجل الحصول على مكان أفضل. والحال كذلك، فهو مواطن حر تحميه أسوار المدينة الحرة. وهو أخيرًا خادم يؤدي خدمته وليس عبدًا.

أما صنف الخادم الروسي وصورته الكلاسيكية فهو شخص مهدور الكرامة، لا عقد يحميه ويصون حقوقه. وفي مكان العقد الذي ينظم العلاقة بين الخادم الأوروبي وسيده، فإنّ مصير الخادم الروسي معقود بقطعة أرض محددة. يستنتج الكاتب من ذلك أن الخادم الروسي كان مقيدًا اقتصادياً وبالتالي فهو فاقد للقدرة على التفكير المستقل والواقعي؛ لا مجال عنده للمقارنة وليس بإمكانه تصور حياة أخرى بعيدًا عن إقطاعية سيده. إنه شخص وحيد، منبوذ من قبل النظام الاجتماعي وجهاز السلطة. يكتب ألكسندر سكيبيرجسكيخ في الفصل المعنون بـ «الخادم الماكر والعبد الصامت»: «لدى الفرد في روسيا ميل صميمي إلى التمرد إذا ما قارناه بأفراد مجتمعات وثقافات أخرى حيث يحدث التمرد بصورة خاطفة، ومضيّة لا تخلف الكوارث. في روسيا يتنامى الشعور بعدم الرضا بالتوازي مع مقدرة الشعب على الصبر الطويل؛ الصبر المتولد من جغرافية المكان ومن النموذج الاقتصادي الخاص الذي يخيم على الإنسان ويتسرب إلى كل نواحي حياته اليومية. إن الوقت المديد الذي يقضيه الإنسان صابرا قبل أن يفيض كأسه إنما يدل على حجم روسيا ومسافاتها الشاسعة. بيد أنّه، وما إن يستشعر الروسي قوته ويبدأ بالحركة فإنّ شيئا لن يقف أمامه لبلوغ هدفه، وستذهب سدى كل المحاولات لإقناعه بالعدول عن عزمه حتى وإن كان هدفه المنشود بعيد المنال أو مستحيلا» (ص ٤٧).

في فصل من الكتاب جاء تحت عنوان: «الألم كتجربة: الشخصية المتمردة في نصوص دوستويفسكي» يحيلنا المؤلف إلى الطابع المزدوج والشكوكي للتمرد الروسي وذلك استناداً إلى المادة الروائية لواحد من أعظم الكتاب الروس في القرن التَّاسع عشر. وليس مستغرباً من الباحث - وأي باحث يتناول مادة التمرد من جانبها السيكلوجي - أن يستعين بأعمال دوستويفسكي للاستفاضة في بحثه ولتشريح مسألة التمرد (في روسيا بأقل تقدير). نجد في العديد من أبطال دوستويفسكي نماذج ساطعة لسواد عظيم من الشعب والمتمثلة في شخصية الفرد الذليل، المغلوب على أمره والحائر في دنياه. شخصيات تميل إلى العنف لتستعيض به عن ما سلبته منها الحياة. وأبطال يسرهم أن يتلذذوا بآلام الآخرين فهي تذكرهم بآلام ذاقوها ذات يوم... مع ذلك فهم مستعدون بعدئذ لإبداء مشاعر الندم والاعتراف بالعار الذي اقترفوه. الشيء نفسه يقال عن طبيعة المتمرد الروسي، فهو في لحظة ثورته لا يبصر طريقاً آخر غير طريق الانتقام وتدمير ما كان سبباً في تعاسته، وحين يعم الخراب من حوله وتهدأ ثائرته، حينها فقط يمكنه أن يعي ما اقترفت يداه لتبدأ محاكمة الذات وتبكيت الضمير.

في فصول أخرى من الكتاب يتفرغ الباحث لرصد الطبيعة المجازية لظاهرة التمرد. وبمقاربة حاذقة بين الطبيعة الروسية والطبيعة الأوروبية تتولد لديه إشارات مجازية تضيء مرامي بحثه. من تلك المقاربات ما يلي: السعة والضيق، الريف والعاصمة، اليابسة والبحر، الميادين والأزقة، الحصن والقصر، الليل والنهار، الهضاب والجبال.

يسترعي المؤلف اهتمام القارئ إلى الجانب الجمالي للتمرد ويخصص له فصلا تحت عنوان: «جمالية التمرد: الموضة والكماليات وأمكنة الاجتماعات وطرق الاتصال». يكتب في هذا السياق: «لا يمكن نكران أن الشخص القادر على التمرد لديه ما يميزه عن غيره. إن خضوعه المستمر لحالة الهياج وإحساسه بفردانيته يؤثران بشكل ملحوظ في ذوقه وعاداته واختياراته المنتقاة من العالم المادي. فألوان ملابسه فاقعة تعكس نهمه الطبيعي وافتقاره للشبع وميله إلى الفضائحية والحدة. إن قميص مايكوفسكي الأصفر (فلاديمير مايكوفسكي ١٨٩٣-١٩٣٠ أكبر شاعر روسي في القرن العشرين) كان بدرجة من السطوع دفعت الشرطة إلى منعه من الظهور به أمام جمهوره. وفيما بعد سيظهر في خزانة ملابسه بدلة وردية بحاشية حريرية سوداء وصديرية مخملية حمراء وسترة برّاقة» (ص ١٥٩).

إشارات أخرى يوردها المؤلف في كتابه تلامس الجانب البراني لظواهر التمرد حيث يحيلنا إلى الثورات الحديثة مختلفة الألوان فنجد الثورة البرتقالية في أوكرانيا وثورة الزهور في جورجيا وثورة المظلات في هونغ كونغ وغيرها من الأحداث، كما يضع ملاحظاته حول الأمكنة التي يجتمع فيها المتمردون وطرق مخاطباتهم للجمهور.

إلى جانب تحليلاته لظاهرة التمرد من جوانبها الاجتماعية والاقتصادية وإسناداته التاريخية والأدبية، وفي مواقع عديدة من كتابه، يعود الباحث الروسي ألكسندر سكيبيرسكيخ إلى راهن بلاده ويسلط ضوءا جريئا وناقدا على السلطات التي يرى أنها تقوم بإجراءات ارتجالية حينما تشعر بانخفاض شعبيتها، فتعمد إلى ابتكار مراكز للحوار ونقاط للتواصل مع الجمهور مبالغ في عددها. يقول في هذا الشأن: «إن الهيئات الجديدة التي من مهامها الأساسية الوقوف كستار عازل بين الحكومة والشعب تتكاثر في هذه اللحظة التاريخية بشكل مفرط ومثير للاستغراب، كما أنها تولّد الشكوك لدى الباحثين حول فعاليتها وفوائدها. في كل محافظة يتم افتتاح دوائر استقبال باسم الرئيس والحزب الحاكم حيث تقوم بعمل محموم باستقبال شكاوى المواطنين وإعداد التقارير حولها. الشيء نفسه ينطبق على مؤسسات الدفاع عن حقوق الإنسان وحقوق الطفل وسواها من النقاط التفاعلية. وبالإمكان تقديم أمثلة لا حصر لها في هذا السياق، بيد أن الخلاصة تتمحور في تسويق العناية الدائمة للمواطنين، وعلى وجه المساواة. وظيفة هذه الهيئات الاستماع إلى مشاكل الأفراد وتهدئة خواطرهم بالوعود. إنهم بذلك يشترون الوقت من المواطن مقابل منحه الأمل لحل مشكلته، وحتى يحين موعد ذلك فإن المواطن لا يفكر في سؤال السلطة بطريقة مباشرة. وبذلك يبعدون الفرد عن البحث المستقل عن العدالة ويخمدون فيه جذوة التمرد» (ص ٤-٥).

---

- الكتاب: مشروعية التمرد في الثقافتين الروسية والأوروبية.
- المؤلف: ألكسندر سكيبيرسكيخ.
- الناشر: إنفرا – أم، موسكو ٢٠١٦
- اللغة: الروسية.
- عدد الصفحات: ٢٦٦

* كاتب عُماني

# موت النقود: إلى أين يقود الماليّون العالم؟ لفالنتين كاتاسونوف

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

**في كتابه الأخير «موت النقود» يواصل الأكاديمي والباحث الاقتصادي الروسي الشهير فالنتين كاتاسونوف تنقيبه وتحليله لأحدث ظواهر واتجاهات الرأسمالية العالمية، وهو عمل بدأه بمؤلفات سابقة يذكر منها: «أمريكا في مواجهة روسيا»، «ديكتاتورية البنكقراطية أو الجريمة المنظمة في العالم المالي»، «أزمة الحضارة النقدية»، «الهرم المالي العالمي»... وغيرها من الأعمال. وباقتطاع ملاحظات من مقدمة الكتاب، يمكننا الاستدلال إلى الغاية التي نشدها الباحث من مؤلفه الجديد. نلاحظه يقول: «لقد غدت سرعة الزمن قياسية وصعبة الإدراك قياسًا بنهاية القرن الماضي.**

في هذا الكتاب ينبه البروفيسور كاتاسونوف إلى ضرورة مقاومة الشركات العابرة، مقاومة وطنية وبشكل فوري وضاغط، ودون ذلك سجن سيطوق البشرية، يحرسه المعسكر البنكي الإلكتروني، وهو معسكر عتيد، يحرم المرء من الانعتاق الاقتصادي والسياسي بل ومن حرية الإرادة نفسها. ويؤكد الباحث أن التوقف عن التعامل بالنقود – الذي بدأت بوادره تلوح في الأفق – إنما هو إجراء من أجل تهيئة المجتمعات لمصير العبودية المالية. ويعطي خبراء الأوراق النقدية والعملة المعدنية مدة زمنية لا تتجاوز العشر سنوات حتى تجد البشرية نفسها وقد أسلمت زمامها لرجالات البنوك وحيتان المال.

يحاول المؤلف أن يجيب على أسئلة عديدة تحيط بهذه المسألة: هل يمكن الإفلات من هذا السيناريو المخيف وكيف؟ ما هي العملات البديلة؟ لماذا أعلنت أمريكا حربًا على الـ «أوف شور» ( وتعني لغويًا: خارج الشاطئ، واقتصاديا: الملاذات الضريبية الآمنة)؟ هل بإمكان الصين إنقاذ العالم؟ ماذا على روسيا فعله في هذا الشأن؟ ومن بؤرة الغبار المعلوماتي الكثيف يستل الكاتب حلوله ويبني فرضياته وينشئ قراءته التحليلية لأهم الأحداث الاقتصادية التي عبرت عالمنا في السنة الفارطة والتي ستلقي بظلالها على مستقبلنا المنظور.

في الفصل الأول ويحمل عنوان: «أوهام الرفاهية أو تطفل الديون» يرسم الكاتب بانوراما للاقتصاد العالمي من جهة توزيع الثروات وفروقات حجم الإنتاج الإجمالي بين دول العالم. فمن عادتنا تقسيم العالم إلى شطرين: البلدان المتطورة اقتصاديًا (الغرب والشمال الغني) والبلدان النامية وهي بعيدة عن مركز الرأسمالية العالمية (الجنوب الفقير). ويضع المؤلف مصطلح «البلدان المتطورة» ضمن آليات وأسلحة البرمجة النفسية اللغوية، أو بعبارة أخرى، غسيل أدمغة يستهدف أولئك الذين لا يمتلكون الخبرة ولا يتحلون بالبصيرة التي تبرهن الحقيقة الطفيلية للغرب. أما فحوى هذه الطفيلية فيوجزها المؤلف في عمليات الاستدانة متدنية الفائدة وطويلة الأمد، التي يُعتبر الغرب بؤرة كبيرة لها. وفي هذا الصدد لا يخفي الكاتب دهشته من الإحصائيات التي تُظهر الغرب في مرتبة متقدمة من الثراء في حين أنَّها تنوء تحت ثقل الديون، ولكنها لعبة الإعلام وصناعة البروبوغاندا.

لا يقف كاتاسونوف موقف الناقد الراديكالي لرأسمالية الغرب بمفرده، فثمة العديد ممن يشاطرونه رؤيته ويقاسمونه الأفكار، وربما يأتي في طليعتهم الخبير الفنلندي جون هيليفينج الذي يتبنى أفكارًا على النقيض من الرواية الرأسمالية الغربية، ويدبّج حولها مقالاته التحليلية. يقول هيليفينج في إحدى مقالاته: «يريدون منّا الاعتقاد أننا في الغرب، وبفضل النموذج الاقتصادي المثالي والمحفز للابتكار والتحديث، إننا نعمل ونعيش بشكل مثالي أيضًا. إلا أنَّ الصورة الواقعية في كل أرجاء الغرب ومعها الولايات المتحدة وكندا وأستراليا واليابان، صورة كئيبة، تفاصيلها انخفاض مستوى التصنيع، وتقلص الصادرات، والتدني الكبير في الميزانيات، والنمو المُرعب للبطالة المزمنة، وشبح الفقر الذي تحاول الحكومات إخفاءه بغطاء الإحصائيات الرسمية (...) أما الابتكار الحقيقي الوحيد الذي أنجزته أوروبا خلال العقد الأخير فيكمن في ابتكار تحسس المُتعة من قبض الديون، وهي متعة – وللأسف – لا حظ لها من الاستمرار والديمومة».

الفصل الثاني من الكتاب جاء تحت عنوان: «رأسمالية الديون: تحول منافسة السوق إلى حروب تجارية»، يناقش فيه الباحث مجموعة من المسائل المرتبطة بتأجج وطيس المنافسة في السوق العالمية للبضائع والخدمات. ويربط الكاتب أسباب هذه المنافسة المستعرة بنهاية عملية العولمة الاقتصادية التقليدية والتي بقيت مستمرة منذ بداية القرن الماضي. يكتب في هذا السياق: «ها نحن نشهد تراجع القوة الأمريكية، السياسية والعسكرية والاقتصادية في العالم. وتحاول واشنطن تعويض ذلك عبر شراكات مختلفة فيما وراء المحيطين. يذكرنا هذا ببداية القرن العشرين وتنافس الامبرياليات من أجل رسم خريطة مختلفة للعالم. فمن المعروف أنَّ هذا التنافس قد تسبب في إشعال الحرب العالمية الأولى. ولسوء الطالع ها نحن نتلمس التشابه الماكر بين أحداث تلك الحقبة بأحداث بداية القرن الواحد والعشرين» (ص ١١). وبحسب رأي المؤلف فإنَّ منافسة أشد ضراوة سوف تنشب عما قريب في سوق الخدمات جراء المشروع الأمريكي الجديد المتعلق بالاتفاقية الدولية لتجارة الخدمات، وهو مشروع يسعى إلى إناطة وظائف الدولة في المجالات الخدمية (المواصلات، والاتصالات، والساحة وغيرها من المرافق) بشركات خاصة، ما سيضع المواطن بمواجهة عمالقة البزنس.

الجزء الثالث من الكتاب: «الاحتياطي

الفدرالي وأمريكا على عتبة صدام عظيم» مكرس للهزات التي يشهدها النظام الاحتياطي الفدرالي في الولايات المتحدة. نعلم أن هذا النظام، ومنذ إنشائه عام ١٩١٣ تحمس ليصبح أرفع مركز لإدارة العمليات المالية والسياسية في الولايات المتحدة وبالتالي في كل أرجاء المعمورة. يرى الكاتب أن بوادر التمرد على تلك المؤسسة بدأت تظهر في غير مكان من العالم، وبات الدولار منذورًا بمواجهات ومنازلات كثيرة، من بينها نزوع بلدان كبيرة كالصين والهند وروسيا إلى الاستقلالية والتضامن فيما بينها في مواجهة العملة الخضراء.

يحتوي الفصل الرابع من كتاب «موت النقود» على تحليل لما يدور في بلد أوربي صغير: سويسرا. نحن فيها بحسب كلمات فالنتين كاتاسونوف داخل «بلد يستدعي الاهتمام والفضول إلى جانب تصورات بالغة المأساوية» (ص ١٣). فتحت ضغطٍ من الحكومة الأمريكية اضطرت واحة البنوك هذه والسلة الآمنة للمدخرات إلى التنازل عن سرية حسابات العملاء... وفقدان بريقها الذهبي. في الوقت ذاته لا يخفى على أيّ مراقب سياسة الاستفتاءات المنتظمة في سويسرا حول مختلف المسائل وفي مقدمتها المسألة المالية. ويرى المؤلف في ظاهرة الاستفتاءات في هذا البلد الألبي مضمارا للاختبارات والتجارب. يكتب عن فكرته هذه: «تشير استطلاعات الرأي إلى أن جزءا من السويسريين يرفضون نظام الدخل الأساسي المكفول (مبلغ شهري يحق لكل مواطن بدون أية شروط) (...) وفي هذا العام تجاوز عدد الرافضين لهذا النظام أعداد مؤيديه (...) فكيف لا يكون ثمة إجماع على نظام مغرٍ كهذا؟. لا لشيء إلا لأنّه متعلق بخطة النخبة العالمية لإفساد الخُلق الإنساني. إخضاع الفرد لغواية الاستهلاك الدائم وإلزامه بعبادة التسيب والبطالة (...) لنتذكر روما القديمة حين كانت الأرستقراطية تقدم الطعام والتسالي للجمهور، وعندما كفوا عنهم ذلك، بداية التسلية ومن ثم الخبز، كفت مدن الإمبراطورية عن الوجود. وبعد كل هذا هل يمكننا القول إن نظام الدخل الأساسي المضمون، نظامٌ غير مشروط؟ فيما يبدو أنه مشروط للغاية بإرادة وقرارات أصحاب الأموال». (ص ١٣٤-١٣٦).

في فصل الكتاب الخامس الذي يدرس الوضع الصيني والمعنون بـ«الصين على مفترق طرق» يسوق الكاتب فرضياته حول

التنين الآسيوي ويضعه في طريق يفتقر إلى إستراتيجية اقتصادية واضحة وطويلة الأمد، كما يُنذره بأزمة عميقة قد توقظ موجة جديدة من القضايا المالية العالمية.

يناقش فصل الكتاب السادس المسمى: «تشنجات صندوق النقد الدولي قبيل الممات» تبعية هذه الهيئة الدولية للولايات المتحدة الأمريكية وارتباطها بسياسات واشنطن. بيد أن المؤلف يستنبط الخلافات والتناقضات التي تضع الولايات المتحدة في مواجهةٍ مع بقية الدول الأعضاء في الصندوق، وهي خلافات على قدر من الحدية ما يعرض الصندوق الدولي للزوال.

ينطوي الفصل السابع: «الأزمة المالية العالمية: في انتظار الموجة الثانية» على شرح لحالة عدم الاستقرار في الأسواق العالمية. ويتطرق الباحث في هذا الفصل إلى الوضع النقدي للبلدان المصدرة للنفط (دول الخليج العربي، وروسيا، وأذربيجان) والتي هي، وفق تنبؤاته، تقع في مناطق الاضطراب. كما يوجه اللوم لوكالات التصنيف العالمية ودورها «الخبيث» الذي تعمد فيه إلى أرجحة الأسواق. وفي مقام ثان يطالب الكاتب بتطبيق ضريبة «روبين هود» (تيمنا بالبطل الإنجليزي الأسطوري الذي يأخذ غصبا من أموال الأثرياء ليهبها الفقراء) والتي ظهرت فكرتها قبل أربعين عامًا بغية اقتطاع قسم من أموال المضاربات العالمية والعابرة للحدود، ولكن المصارف وقوة نفوذها في السياسات التشريعية للدول حالت دون تحقيق ذلك.

ويهتم الكاتب في الفصل التالي بالنخبة الثرية التي يزعم أنها تفضل العمل السري على الظهور للعيان ومناطق الضوء. في الفصل التاسع المعنون بـ «جنة بلا نقود» يصف لنا الكاتب التحولات التي تمور في أغوار الرأسمالية العالمية، ويلحظ ما يطفح من تلك التحولات على السطح ومنها تخفيض البنوك لفوائد تعاملاتها وصولا إلى إلغائها التام. يسمي الباحث هذا الإجراء «سريالية الأرباح» ويرى فيه بوادر لموت النقود المتداولة إلى جانب أنها مظاهر لاقتراب نهاية تاريخ الرأسمالية التقليدية.

في الفصل العاشر والأخير يستعرض الخبير الروسي أوجه المعارضة التي تبديها بعض الدول للأوغارشية العالمية ويستقرئ خططها في مراقبة العمل البشري بمجمله وبحثها عن بديل للعملات المتداولة والتي تعد أداة فاعلة في وجه الطغمة المالية المتحكمة وكبح شهوتها الاستحواذية.

في الختام يشاطرنا الكاتب أفكاره حول بلده روسيا ومكانها في نظام الرأسمالية العالمية، ويستدل إلى طرق خروجها من أزمتها المالية الراهنة والتخلص من اختناقها النقدي الذي ما برح يستفحل في الآونة الأخيرة.

أخيرًا وجب التنويه إلى مجموعة من السمات التي ميزت هذا الكتاب ومنها: وضوحه لغير المختصين في علم الاقتصاد، احتواؤه على عدد وافر من الروابط الإلكترونية التي تؤكد على مصداقية البيانات الواردة فيه. أما الصياغة التي وضعها الكاتب لتأليفه وكيفية ربطه للأفكار في عالم المال المضطرب، فقد جاءت على شاكلة فسيفساء: مختلفة الأجزاء ولكنها مجتمعة البنيان. كما جعل نظرته تنساب من العلو الإستراتيجي للجغرافيا السياسية وللتاريخ والآيدولوجيا والأخلاق والدين. وأما الصدى الكلي والضمني لكتاب «موت النقود» فنجده في عبارة الزعيم الكوبي فيديل كاسترو التي استهل بها الكاتب مؤلفه: «الرأسمالية مثيرة للاشمئزاز وهي مكمن للحروب والنفاق والتنافس».

---

– الكتاب: موت النقود: إلى أين يقود الماليّون العالم؟ تحولات رأسمالية الديون.

– المؤلف: فالنتين كاتاسونوف.

– الناشر: كنيجني مير (عالم الكتب)، موسكو ٢٠١٦.

– اللغة: الروسية.

– عدد الصفحات: ٣٨٤

* أكاديمية ومستعربة روسية

# صُنع في ألمانيا: ما الذي يعنيه أن تكون ألمانيّاً في ألمانيا؟

# لياغودا مارينيك

رضوان ضاوي *

**تُعدّ الكاتبة ياغودا مارينيك من الأصوات الجديدة التي يمكن أن تُقدّم لنا آراءها وتجاربها المختلفة بخصوص ملف الهجرة واللجوء والمكان والغربة، فهي من أهم الأصوات في النقاشات الدائرة حول المهاجرين؛ سياسياً وأدبياً، واجتماعياً.**

**في هذا الكتاب، تحكي المؤلّفة عن بلد الهجرة ألمانيا الذي يعيش نقاشات ساخنة وهستيرية عن الهجرة وعن الاندماج. والكاتبة والصحفية ياغودا مارينيك -المولودة في ألمانيا من أبوين كرواتيين- تُذكّر في كتابها، بأنّ ألمانيا ظلّت لفترة طويلة بلداً للمهاجرين. يتحدّث المرء اليوم في ضوء موجة اللاجئين غير النهائية عالمياً وعن «ثقافة الترحيب» الألمانية، فعلى الرّغم من أنّ الأوساط السياسية والاجتماعية في ألمانيا كانت تنفي أن ألمانيا هي فعلا بلد مستقبل للمهاجرين إلاّ أنّ المؤلّفة تقول: يوجد اليوم ستة عشر مليونًا من الذين نُسمّيهم «الألمان الجدد»، وهم أشخاص من أصول أجنبية هاجروا إلى ألمانيا ولكنهم يحملون جواز سفر ألماني.**

تنظر الكاتبة في كتابها بالعين المدقّقة إلى النقاشات الساخنة عن الهجرة واللاجئين من وجهة نظرها الخاصة جداً. واليوم يتراجع دور ألمانيا كما تقول الكاتبة، لأنّ ثقافة الترحيب التي كانت سائدة لعقود فيها تمّ القضاء عليها بسبب هيستيريا الإدماج. وتريد مارينيك بكتابها معارضة الأفكار النمطية في ألمانيا ومخالفتها: «إنه خطاب الخوف والعداء، وأعتقد أن ألمانيا يجب أن تفهم بوضوح، ما الذي حققناه مجتمعين في هذا البلد منذ عقود، وعلينا أن لا نخاف، كما يقترح البعض اليوم». وتضرب مثلاً بوالديها اللذين جاءا قبل عقود إلى ألمانيا بصفتهما من العمّال الضيّوف، الذين أسّسوا عائلات هنا. وقد أشار الكاتب وعالم الاجتماع الألماني زيميل Simmel إلى أن «القوم يأتون اليوم ويستقرون لقضاء الغد أيضًا»، ولم يعد«القوم يأتون اليوم ويرحلون في الغد».

ولم تغفل الكاتبة الإشارة إلى حادثة الاعتداءات الجنسية لبعض الرجال ضد فتيات في رأس السنة في كولونيا، وهي سابقة مفصليّة بالنسبة للنّقاشات الألمانية الألمانيّة بخصوص الهجرة واللجوء. -ومن وجهة نظر الكاتبة- هذه الحادثة هي استثناء من بين الاستثناءات السيّئة لنقاشات معيّنة وجب الحذر منها، فتقول: «يتحدّث المرء، في ألمانيا فقط عن الاستثناءات السيئة، مثل موضوع الإدماج والهجرة... إنها فرصة بالنسبة لألمانيا، ولكن ليس خطراً عليها».

ولكن ما المقصود بصُنع في ألمانيا؟ تجيب المُؤلّفة :«عندما أتحدث الآن عن كولونيا، وأتحدث بدون تمييز عن هؤلاء الشباب ذوي مظهر أبناء بلدان الجنوب، أجد أنّهم ولدوا بجواز سفر ألماني. فجأة أصبح هؤلاء الشباب ضمن مجموعة تقوم بأعمال، لا يد لهم فيها»، فلماذا ركزت وسائل إعلام في حملتها على قضية كولونيا بالضبط؟ نتحدّث هنا عن كيفية تعامل وسائل الإعلام معها، لأن الجريمة هي جريمة، ويجب الحذر من استعمال مصطلحات، مثل: أجانب، أشخاص ذوي أصول مهاجرة، لاجئين، منفيّين، إلى غير ذلك من المفاهيم التي تثير سوء الفهم حين تتناولها وسائل الإعلام من جهة تحريضيّة خالصة.

يتكون الكتاب الذي بين أيدينا من مجموعة من الخطابات حرّرتها الكاتبة لأسباب مختلفة وفي مناسبات عديدة. ولدت ياغودا مارينيك في ألمانيا وتعمل اليوم كاتبة وصحفية. ولكن والدَيها ليسا ألمانيين، لقد جاءا من كرواتيا بصفتهما عمّالا ضيوفاً، إذاً ميرونيك ذات أصول مهاجرة، وتكتب عن هذا الموضوع، وعن موضوع الهجرة والإدماج. تتحدث الكاتبة هنا عن حكاية عائلتها، التي تمثل حكاية لكل الأوروبيين الشرقيين أي يوغوسلافيا ما بعد الحرب، التي جاء منها كثير من اللاجئين، أيّ من«العمّال الضيوف». يتحدث المتناولون لقضية الهجرة واللجوء في ألمانيا بشكل عام عن كينونة الأجنبي بوصفها كينونة الوضيع، أو كينونة الطبقة الدنيا، وكينونة العمال الضيوف، والأجانب، وهي كلمات يتم همسها، وترفضها الكاتبة وبالتالي ترفض العبارة المتواترة بأنه «بعد سنوات كثيرة نعرف أنّ الخيّرين من المهاجرين يوجدون في كندا، والسيّئين يوجدون في ألمانيا».

من الواضح جداً أن للكاتبة نظرة مغايرة للكينونة الألمانية، فما معنى أن تكون ألمانياً؟ وهل ألمانيا مختلفة عن غيرها؟ لقد استلهمت الكاتبة قوّة معارضتها للصور النمطية والمسيئة للمهاجرين واللاجئين من تجربتها الفريدة والمهمة: فهي ألمانية تعيش بأصول وجذور كرواتية حافظت عليها، ولم تتنكّر لها.

تقول القاعدة المعروفة إنه لكي يكون الشخص ألمانياً، يجب أن يكون مولوداً في ألمانيا. والمهاجرون الذين يعيشون هنا منذ ستين سنة، ساهموا كثيرا في تنمية هذه البلاد، مثل الألمان تماماً. تكتب المؤلّفة التي لم تكن آنذاك أكثر من ابنة عامل أجنبيّ في نظر الناس، أي أن وضعها الاجتماعيّ كان متدنيًّا جدًا، قائلة: «في كينونتي الألمانية أجد صدى الكثير من الأمور، من بينها ما تعلمته من والديّ، لقد حملت الكثير من السِمات الكبيرة من عائلتي إلى هذا البلد باعتباري فاعلة اجتماعية مؤثّرة». وتتحدث المؤلّفة عن العنصريّة فتقول: إن العنصريّة كانت من المحظورات في ألمانيا، واتبع المجتمع هناك استراتيجية مختلفة من أجل مواجهة الماضي، وتلك الإستراتيجية تمثّلت بشكل عام في مبدأ التعلّم من أخطاء الماضي؛ ومن هذا، أسلوب التعامل مع العمالة المهاجرة. حينما عزف العمال عن العودة إلى مواطنهم الأصليّة بعد انتهاء مهمتهم، قَبل الألمان بوجودهم على مضض باعتبارهم ضيوفًا دائمين، وبقي الأمر على هذا الحال.

وحتى بداية القرن الواحد والعشرين زعم بعض السياسيين البارزين أنّ ألمانيا ليست بلدًا مستقبلاً للهجرة، على الرغم من كونها كذلك بحكم الواقع القائم على مدى قرن مضى. وفي الماضي لم يكن مفهوم الإدماج معروفاً، فقد تمّ قبول آباء هؤلاء المهاجرين على أساس فكرة أنهم سيرجعون إلى أوطانهم. واليوم تعيش ألمانيا على أعتاب تحوّل كبير. فالناس الذين بقوا هنا، يجب أن تُرسم لهم الطريق الجيّدة لكي يتمكّنوا من مشاركة الألمان الحياة مشاركة فعّالة. وعالمياً تمّ مدح ألمانيا وشكرها على ثقافة الترحيب، لكن الكاتبة حذّرت بخصوص هذا الأمر: «في الواقع لدينا هذا الانطباع: يتمّ تحيّة الضيوف عند عتبة الباب، ثم يتركونهم يدخلون، لكنهم يضعونهم في الردهة. ولا تتمّ معاملة الضيوف هكذا، لاسيما إذا كان التفاهم معهم ممكنا».

وتطرح المؤلفة أسئلة مهمة جداً بخصوص سلوك المهاجرين، من مثل: كيف يجب أن يتصرّف الألماني؟ كيف يجب أن يتصرّف المهاجر؟ وتجيب الكاتبة بأن المجتمع الألماني هو «مجتمع يسير نحو التحول»، وكل لقاء مع الإنسان يغيّر الناس، سواء أكان مهاجراً أم ألمانياً. ومع كل إنسان يعيش المرء خبرة ما، يحصل على تجربة ما، يحصل على حقيقة جديدة. يجب إذًا أن لا يكون لدى الناس تشنجات مع بعضهم البعض. لقد تغيّرت ألمانيا كثيرًا وهي في طريقها للقول بأنّ «أيّ بلد هو قويّ حين يُسهم فيه سكّانه بقوّتهم».

ولهذا تدير الكاتبة مركزًا للقاء الثقافي في هايدلبرغ يتمّ فيه تشجيع الناس على التعرّف إلى أشكال مختلفة من الثقافة والفن وتبادل خبرات اللقاء ومعايشتها، وبأن لديهم اختلافات، خاصة الثقافة الأخرى، لكن لديهم أيضاً نقاط مشتركة، نقطة الالتقاء هذه هي ألمانيا بلدهم وعليهم المساهمة في تنميتها. في هذا المشترك، أي في هذا الـ«نحن نخلق معاً لحظة، وأمسية، ومحادثة»، يحدث ما تسميه الكاتبة « صُنع في ألمانيا» هنا تكمن القوّة حين يتمّ خلق «مشروع أدبي» أو«برنامج مناقشات بين الناس». وهذا المشترك لدى الكاتبة يعني: كلّ ما هو تاريخي، إذ منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية تعلّق الأمر بالمشترك في الأمن والرخاء والسلام، في ألمانيا وفي أوروبا.

تطرقت الكاتبة كذلك لتخوّفات الألمان من وجود مجتمع موازٍ في ألمانيا. وتعتقد المؤلّفة أنه من الأفضل الحديث عن وجود أحياء كاملة منعزلة، يتواصل فيها الناس بلغة الوطن، حيث يتم تمييزهم عن طريق الثقافة وينعدم التبادل التفاعلي، وهذا يقود إلى الحديث عن التعدّدية الثقافية. ومن الصعب إذاً الحديث عن مجتمعات موازية. لكن يجب الاهتمام بالمشكلات التي تعاني منها هذه الأحياء: هل يتعلق الأمر بأسئلة اجتماعية؟ هل يتعلق الأمر بأشخاص لا يستفيدون من التوزيع العادل للثروات في هذا المجتمع بما فيه الكفاية؟ أم الذين لا يستطيعون الدخول إلى سوق العمل؟

ويبدو أن المؤلفة مؤمنة أيضا بما يمكن أن يقوم به فعل الكتابة. فما يمكن أن يفعله كتاب ما، هو تعزيز تعدّد الأصوات وجلب مواقف تكون مثيرة للجدل، وبالتالي السعي نحو الحوار مثل تناول الحديث السلبيّ عن المجتمع الذي يستطيع إثارة المخاوف والبحث عن صور عدائيّة وصور رخيصة للأعداء من أجل إحداث سوء الفهم: «وعندما أقول تجربة/خبرة، من الصعب أن نختلف، أعرف الكثير من قصص النجاح، تحدثت أنجيلا ميركل عن الماضي المشترك، فالمهاجر يساهم في تطوير ثروة البلد، لهذا كتابي اسمه «صُنع في ألمانيا»، المهاجر هو الجزء غير المرئي لعلامة تجارية ناجحة. لمرئي من علامة تجارية ناجحة».

تؤدي الهجرة إلى تطعيم ألمانيا التي أصبحت بلداً يستقطب المهاجرين. فقد استقبل هذا البلد ملايين العمّال الضيوف، وهي حركة شاركت بفعالية قويّة لأن ترتقي ألمانيا إلى مصاف أكثر الدول الأوروبية رخاء ورفاهية. لكن اللاّجئين السياسيّين والفارّين من الحروب يأتون هنا ليس لأن السّوق تحتاج إليهم، ولكن لأنهم يبحثون عن حياة أفضل. ويمكن أن تكون الهجرة وسيلة للبقاء على قيد الحياة. فالهروب من المتابعة والرغبة في الخلاص من العوز والفقر تشكل دوافع يسهل فهمها. كما أنّ المرء بحث عن فرص مناسبة للعمل الجيد في الخارج. والهجرة هي نتيجة منطقية لتوزيع الخيرات بطريقة غير عادلة. وتشكل الهجرة أيضاً سبيلا للاطلاع على أحوال العالم والتعلّم من البلدان الأجنبية من خلال اكتساب تجارب مهمة.

ويبدو لي أن عنوان الكتاب «صنع في ألمانيا» يوحي بالعلاقة الموجودة بين الإدماج والاقتصاد في ظل توحش الرأسمالية. يتكون الكتاب من ستة فصول، وهي عبارة عن خطابات ألقتها الكاتبة في مناسبات عديدة في الفترة بين ٢٠١٢ و٢٠١٥: بمناسبة اليوم التحضيريّ للأسبوع الثقافي

في نورنبرغ ٢٠١٢، وفي ندوة نورنبرغ للاندماج ٢٠١٣، وفي اليوم الدراسي حول المفاهيم الجديدة في مجتمع المهاجرين والصنّاع الجدد الألمان للميديا في وزارة الهجرة واللاجئين٢٠١٣، وفي منتدى الثقافات في شتوتغارت عام ٢٠١٤، وفي الذكرى الخامسة والعشرين ليوم الوحدة الألمانية في السفارة الألمانية في واشنطن ٢٠١٥ .

وتقول الكاتبة: إن كونها سفيرة الثقافة، وكاتبة ومديرة المركز الثقافي في هايدلبرغ، أتاح لها التساؤل عن ماهية سياسة اللاجئين التي تستحقها ألمانيا، ولهذا تحدثت مع أشخاص كثيرين في إطار نقاشات الإدماج. هل هم أجانب؟ أم مهاجرون؟ أم هم أشخاص ذوو أصول مهاجرة؟

نلاحظ أنّ الكاتبة تهتم كثيراً بالمفاهيم ولا تترك أية فرصة للتدقيق في مفهوم أو في مصطلح وتعتبر مدخل المفاهيم مهمّا جدا من أجل فهم ثقافة الترحيب وثقافة الاعتراف، كما أنّها تثمّن العمل الاجتماعي المشترك، فهي تؤمن بمبدأ الوحدة في التعدد. وكما تقول المؤلفة: كثير من الناس ذوي التجربة في الهجرة هم جزء من الحياة العامة: كمقدّمات الأخبار، والكاتبات، والرياضيّين، والسياسيّين. فهل يمكن تطوير العمل الاجتماعي المشترك في ظل هذا المناخ؟ هل يمكن أن يواجه الألمان ذوو الشعر الأسود التصورات النمطية لأبناء بلدان الجنوب التي تنعدم فيه الثقافة حسب حملات وسائل الإعلام المغرضة؟

لقد أصيب الألمان بصدمة إزاء موجة الهجمات المعادية للأجانب التي اندلعت قبل سنوات قليلة، واندلع الخوف أيضا جراء موجات اللاجئين التي اجتاحت البلاد من ناحية، والهجمات الإرهابية للمتطرفين التي وقعت في المدن الأوروبية الغربية من جهة أخرى. وبعد الهجوم على صحيفة شارلي واعتداءات نوفمبر ٢٠١٥ في فرنسا، ارتبط نقاش سياسة الإدماج بسياسة الأمن، وأصبح الإدماج لبّ الأشياء باعتباره موضوع المجتمع وقضية رأي عام؛ ولهذا تدعو الكاتبة إلى الإستفادة من أخطاء الماضي: فما الذي يمكن تعلّمه من الماضي؟ في الماضي جاء إلى ألمانيا أشخاص كانت السوق تحتاج إليهم، إنهم العمال الضيوف، إنها استراتيجية: يأتي إلينا من يحتاجه السوق.

في صيف ٢٠١٥ شيّدت وسائل الإعلام العالمية صورة لألمانيا بلداً كلّه إنسانيّة. ولكن دروسًا في الإدماج لا يمكن أن تحلّ المشكلة. لقد قامت ألمانيا بإدماج ملايين المهاجرين وأحفادهم، وأدمجت كل شرق ألمانيا. وهي سياسة جعلت وسائل الإعلام والمجتمع ينقسمان إلى فريقين: الفريق الأول يقول إنّ ألمانيا ليست بلد هجرة وللمهاجرين، فعبارة نحن الشعب تدل عند هؤلاء على أن الأجانب، والأجانب الذين يحملون جواز سفر ألماني ليسوا الشعب. أمّا الفريق الثاني فيُميّز بين المهاجرين الذين تم تجنيسهم ويمتلكون جواز سفر ألماني من اللاجئين المُعدَمين. وترى ألمانيا بأنها تواجه تنوعًا، في حين تتساءل الكاتبة حول كيفية تعامل المجتمع الديمقراطي مع أقليّاته وإلى أي حد يُتَعامل بجديّة مع القوانين المضادة للإقصاء؟ إن مفتاح الإدماج هو التكوين. ومن يستفيد من التكوين يمكن أن يمنح شيئاً لألمانيا: لا يتعلق الأمر هنا فقط بتعلّم اللغة الألمانيّة، بل بدخول الطفل إلى العالم لكي يصبح واحدًا من هذا العالم المتعدد.

ترفض الكاتبة الجزم بأنّ كل المهاجرين جاءوا بدون ثقافة. إذا فحصنا مقررات مادة اللغة الإنجليزية في ألمانيا، سنجد أنّهم يدرسون الأدب ما بعد استعماري وكتابات عن رشدي سلمان، وعن الأساطير الهندية. ويقرأون عن الصراعات الهوياتية للعائلات البريطانية المهاجرة، وعبر إطلاعهم على الأدب البريطاني يعرفون بعض المعلومات عن المجتمع المتنوع في بريطانيا، وهي كتب تحولت إلى أفلام أو مسلسلات مما يجعل البريطاني يتواجه مع المهاجرين. ولكن لماذا لا يقرؤون شيئا عن العالم الموجود على أبوابهم؟ ما الذي يعرفه التلميذ الألماني عن المهاجرين في المجتمع الألماني في الثلاثين سنة الأخيرة؟ من هم الكتاب الكبار والكتب القيّمة التي تستوطن رؤوس وغرف هؤلاء التلاميذ؟

نلاحظ بأن الكاتبة عملت على استثمار تجربتها المهنية بصفتها صحفية وكاتبة عمود رأي في صحيفة اليوم البرلينية، ومحاضراتها، وخطاباتها، في المؤتمرات، وفي الندوات، في تثبيت تجربتها في مجال الهجرة واللجوء؛ فمن كُتبها التي تناولت فيها الموضوع نفسه: كتابها الأول «عقد زواج»، ومجموعتها القصصية «كتب روسية»، وروايتها «مجهول الأم»، إضافة إلى مقالاتها في الصحف، كما أنها استفادت من تنقلاتها في زيغرب ونيويورك وبرلين، ومن استقرارها اليوم وعملها مديراً مؤسسة للمركز الثقافي في هايدلبرغ.

-----------------------

– الكتاب: صنع في ألمانيا: ماذا يعني أن تكون ألمانيا في ألمانيا؟
– المؤلفة: ياغودا مارينيك
– الناشر: هوفمان وكامبه، هامبورغ، ألمانيا، الطبعة الأولى، ٢٠١٦
– عدد الصفحات: ١٧٤ صفحة
– اللغة: الألمانية.

Made in Germany: Was ist deutsch in Deutschland?, Jagoda Marinic, Hoffmann U Campe Vlg Gmbh, (14 mai 2016), 174 Seiten..

* مترجم وباحث مغربي في الدراسات الألمانية

# الفلسفة الإسلامية وأخلاقيات الاعتقاد لأنطوني روبرت بوث

**محمد الشيخ ***

**لعل «رقدة» أهل الفلسفة بالعالم العربي طيلة القرون المديدة التي سبقت النهضة الحديثة كانت أشبه شيء يكون برقدة أهل الكهف. وإذ استفاقوا من رقدتهم . بفعل بلاء العديد من المستشرقين في تحقيق ونشر التراث الفلسفي العربي وتدريسه بالجامعات العربية كما حدث في مصر منذ العشرينيات من القرن الماضي. فقد وجدوا أنفسهم في وضع أشبه ما يكون بوضع الواحد من أهل الكهف الذي أراد أن يقتني ما يسدوا به رمقهم بعملة ما عادت متداولة منذ أمد. فكان لا بد من أن «يجددوا» هذه الفلسفة حتى تصير مقروءة في زمن بينما رقدت فيه الفلسفة الإسلامية رقدتها المعلومة استيقظت فيه الفلسفة الغربية يقظتها المعروفة. على أنهم جددوا في مناهج دراسة هذه الفلسفة (تأويلية حسن حنفي، مادية وجدلية حسين مروة والطيب تيزيني، بنيوية الجابري التكوينية..)، وما جددوا . اللهم إلا في ما ندر. في «موضوعات» هذه الفلسفة. فظلوا على الأغلب يجترون الموضوعات ذاتها التي استُهلكت: العقل والنقل، الحكمة والشريعة، نظرية الفيض، المدينة الفاضلة، نظرية النفس.. بينما مواضيع أخرى ظلت «مهمشة» في هذه الفلسفة: الصداقة، السعادة، الفرح، الحزن، العشق، اللذة، الموت، الانتحار..**

وبينما كان أصحاب المشاريع في قراءة الفلسفة الإسلامية يدندنون حول المواضيع عينها، كانت الفلسفة الغربية قد طلعت على الدنيا بمباحث فلسفية جديدة: الأنطلوجيا الاجتماعية، فلسفة المعرفة، أخلاقيات الاعتقاد، إبستمولوجيا الوحي، إبستمولوجيا الخلاف، إبستمولوجيا الشهادة.. رافقتها مواضيع جديدة: الاعتقاد، الاعتراف، التذاوت، التشاور، التوافق.. ومناهج مستحدثة: التحليل، الهدم والتفكيك، الجنيالوجيا..

وهذا الكتاب يدخل في صميم حركة تجديد النظر في «مواضيع» الفلسفة العربية الإسلامية الكلاسيكية. ذلك أنه يعالج أحد المواضيع التي استجدت على النظر الفلسفي الغربي منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى اليوم. يتعلق الأمر بما صار يعرف في الأدبيات الغربية المعاصرة باسم «أخلاقيات الاعتقاد» أو «إبستمولوجيا الاعتقاد». وهو مبحث يروم النظر في مسألة «الاعتقاد». أي اعتقاد كان. هل يتأسس على أساس «بينة بدية . البَيِّنيُّون أو الحُجِّيون . أم على غير أساس وإنما على إيمان يلقى في قلب المعتقد أو لطف يناله . اللَّابَيِّنِيُّون.

ولست ترى الباحث إلا موافقا على ما ذهبت إليه الباحثة الغربية تمارا ألبرتيني من أن ترجمة الفلاسفة العرب إلى اللغات الغربية واقع تحت ما سمته «فقر الترجمة»، بحيث «أُفقروا» هم من الكثير من محتويات فلسفتهم، إلا أن هذا لا يمنع الباحث من التأكيد على أن الانطلاق من الفلسفة الغربية المعاصرة في النظر إلى مواضيع الفلسفة العربية الإسلامية ما كان من شأنه أن «يُفقر» هذه بقدر ما من أمره أن «يُغني» تلك الفلسفة، بل إن الباحث يجد في فلسفة الفارابي في الاعتقاد «إثراء» للنقاشات الفلسفية الغربية المعاصرة في مجال أخلاقيات الاعتقاد.

وصاحب البحث . أنطوني روبرت بوث، وهو باحث في مجال الإبستمولوجيا والأخلاقيات التطبيقية يعمل حاليا بجامعة سيسكس ببريطانيا. ينطلق من اعتقاد يخص مسألة الاعتقاد هذه: وهو أن المسألة الأساسية في الفلسفة الإسلامية هي مسألة أخلاقيات الاعتقاد: ما الذي ينبغي على المرء اعتقاده؟ ما شروط خروج المرء عما يعتقده؟ كيف يمكن التحقق من دعاوى النبوة؟ وأطروحته في هذا المجال التي يبسطها كتابه غاية البسط هي أن من يعتبرهم «قلب الفلسفة الإسلامية» (الفارابي وابن سينا وابن رشد) يتبنون على هذا المستوى ما يسميه «النزعة البَيِّنية «مشتقة من البَيِّنة بمعنى الحجة» المعتدلة»، ومفادها أنهم يرون أن على الإنسان أن يعتقد الاعتقاد (ب) في حالة ما إذا كانت ثمة بيِّنة جيدة على ما يذهب إليه من الاعتقاد (ب).

وبغاية بسط أطروحته هذه، يقسم كتابه إلى ثلاثة فصول: الفلسفة باعتبارها أخلاقيات اعتقاد، اليقين والنبوة، النبوة والسياسة.

### الفلسفة باعتبارها أخلاقيات اعتقاد

هذا كتاب كالخطبة البتراء كُتب بلا مقدمة. نفتح الكتاب مباشرة على الفصل الأول . بعد الفهرست وكلمة الشكر. وملخص الفصل اهتداء الباحث إلى اعتبار الفلاسفة المسلمين الكبار في العصور الوسطى على ضوء الباحثين الغربيين المعاصرين في شأن أخلاقيات الاعتقاد. وفي هذا الإطار، يميز في الفكر الإسلامي وموقفه من مسألة أساس الاعتقاد بين ثلاثة مواقف: ما يسميه «النزعة البَيِّنيَّة» أو «النزعة الحُجِّيَّة»، وهي التي تتشدد في مسألة أن لا اعتقاد إلا وينبغي أن يقوم على «بيِّنة» أو «حجة»، وما يسميه «النزعة المضادة للنزعة البينية» التي ترى أن الاعتقاد ليس يقوم ولا ينبغي أن يقوم على بينة، وإنما هو إلهام أو هداية أو عناية أو لطف من الله. وهو يحاجج على أن الفلاسفة المسلمين ما كانوا لا أصحاب هذه، ولا أصحاب تلك، وإنما تبنوا ما يسميه «النزعة البينية المعتدلة»، وأن هذه النظرة تحتاج إلى الاعتبار والتقدير في النقاش الحديث الدائر على أخلاقيات الاعتقاد. وهو يقابل بين هذه النظرة والنظرة التي يعتبرها المنافس الأوحد، في السياق الإسلامي، الذي هو النزعة المعتدلة المعادية للنزعة البينية (الغزالي).

ويعود ليذكرنا بسياق كلامه عن أخلاقيات الاعتقاد، وهو السياق الفلسفي الغربي، إذ يطلق مفهوم «أخلاقيات الاعتقاد» . في الفلسفة الغربية . على النقاش الذي دار بين فئتين من الفلاسفة في ما يتعلق بمسألة «تسويغ» أو «تعليل» أو «تبرير» الاعتقاد. الأوائل هم «البَيِّنيُّون» أو «الحُجِّيون» الذين لا يعتقون إلا في ما قام على بينَة أو علة معرفية، والثواني هم «اللاَّ- بَيِّنُون» أو «اللا-حجيون» الذين ينكرون ضرورة الحجة.

فلا يعني أن تكون للمرء حجة على ما اعتقده أن تلك الحجة تسوغ له ما اعتقد. ينسب الموقف الأول إلى عالم الرياضيات والفيلسوف البريطاني وليام كليفورد (١٨٤٥-١٨٧٩) القائل بمبدأ: «من الغلط دوما ومهما يكن من أمر أن يعتقد شخص اعتقادا ما استنادا إلى حجة غير كافية» (١٨٧٧). أما الموقف الثاني فينسب إلى النزعتين التقوية الإيمانية (الفيلسوف الدانماركي سورن كيركجارد (١٨١٣-١٨٥٥)) والبرجماتية العملية (الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس (١٨٤٢-١٩١٠)) ، وهما تشتركان في القول بأن الاعتقاد الديني لا ينبغي أن يُتعقل بعوامل معرفية إبستيمية، لأنه ما كان من مسألة معرفة وإنما هو مسألة إيمان، أي مسألة عملية، بل هو عند كيركجارد «قفزة» إيمانية ليست للتعقل.

يستكشف الباحث ما إذا كان هذا التقسيم قد سرى أيضا على مفكري الإسلام في أمر الاعتقاد الديني. وهكذا يميز بين ما يسميه:

«النزعة البينية الإسلامية». وهو يرى أن أول فلاسفة العرب . الكندي . كان معنيا بمسألة الإيمان والعقل، ومن ثمة بمسألة ما الذي يُسَوِّغ الإيمان. وهذه المسألة هي بطبيعة الحال المسألة الهادية لأخلاقيات الاعتقاد. ويورد مقتطفا من كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى: «ينبغي لنا ألا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأمم المباينة، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق». ليستنتج منه أنه عند الكندي لا بد لنا من مسوغ معرفي لتبني اعتقادات دينية، وأن الاعتقاد الإسلامي بما أنه حق، فإنه لا يتناقض مع الاعتقادات الحقة الأخرى لدى الأمم المباينة، لا سيما اعتقادات الفلاسفة. لكن الباحث سرعان ما يلاحظ أن هذا الموقف الحجي سرعان ما يثير مشاكل عويصة، ومنها أنه يهمل طرح مسألة النبوة.

٢- «النزعة البينية المعتدلة»:

يرى الباحث أن وجهات نظر الفارابي وابن سينا وابن رشد في مسألة الاعتقاد تتماثل على الرغم من تباين مواقفهم. ومفتاح فهم موقفهم تصور الفارابي لمفهوم «اليقين» المبني على مفهوم «البرهان» الأرسطي. حيث يرى الفارابي أن اليقين الأول إنما هو يقين الأنبياء الذين وُهبوا مَلَكَة تخيل مختلفة عن ملكة بقية البشر، وهي الملكة التي تتيح لهم إدراك المبادئ الأولى؛ أي تُقدرهم على حدس الحقائق المجردة حدسا. ولها وظيفتان: أ . تهب النبي مهارة خطابية تمكنه من درك الصلة بين القضايا المعقدة والقضايا البسيطة وتفسر الأوائل بالثواني. ب . تهب النبي مهارة عملية بإقداره على تحقيق بعض المبادئ في الواقع، وتُصَيِّرُ منه القائد السياسي الأمثل. ومن ثمة جمع النبي في ذاته بين الكمالين النظري والعملي. على هذا الأساس تشكلت ما يسميه المؤلف «النزعة البينية المعتدلة» في أخلاقيات الاعتقاد.

ذلك أنه عند الفارابي البشر بوصفهم كائنات ناقصة منذورون إلى فقد الرؤية، ووحده النبي بقواه السامية القادر حقا على أن تكون له روية لا تضعف؛ وذلك لأنه، من جهة، يملك اليقين حول طبيعة البشر، ومن جهة أخرى لأن له وحده المعرفة المطلوبة لتدبير شؤون الأمة. وقد سمى المؤلف هذه النزعة بأنه «بينية معتدلة»: «بينية» لأن دور الأنبياء. الذين بمكنتهم درك اليقين. هو الاعتقاد بأن (ب) حق لأنها بالفعل حق، بما يعني أن الأنبياء لا يمكنهم أن يصدقوا قضية ما على أنها حق ما لم تكن كذلك. ومن ثمة، لا اعتقادات باطلة عند الأنبياء. غير أن هذا الموقف غير بيني من جهة أنه قد يأتي على البشر العاديين غير الأنبياء أن يصدقوا بأشياء من غير بينة. ومن هنا الحاجة إلى هداية الأنبياء البشر. ومن ثمة كانت «البيِّنية» معتدلة.

ويقارن الباحث موقف الفارابي بموقف كل من ابن سينا وابن رشد، وهما معا ينتهيان شأنهما في ذلك شأن سلفهما إلى القول ببينية معتدلة. لكن الفارق بين الفارابي وابن سينا في أمر النبوة أن هذا يذهب إلى أن النبي يمكنه أن يحصل معرفة جديدة، بينما الأول لا يرى غير أن النبوة لا تعمل إلا على تسيير فهم موضوعات الاعتقاد والمسوغ الذي يُعطاها أصلا. وقد أنكر ابن رشد بشدة هذا القول الجديد الذي قال به ابن سينا. والحال أن فلسفة ابن رشد تُؤولت بتأويلات شتى، ومنها تأويل ليو-شتراوس ورالف ليرنر وهربرت ديفيدسن التي ذهب إلى أن الرجل كان يذهب مذهبا دنيويا . دهريا . متقدما، بينما ذهب إرفن روزنتال إلى أن الكلمة الفيصل عند ابن رشد تبقى للشرع على العقل، هذا في حين ذهب أوليفييه ليمان إلى النظر نظرة كندية إلى ابن رشد: العقل والإيمان طريقان فعالان نحو الحَقيقة عينها. ويميل المؤلف إلى الرأي الأول، فيرى أن الروية عند ابن رشد أشبه شيء تكون إلى علم الطب وتطبيقه في الواقع إذ يتطلب الأمر مهارة فائقة. والنبوة تشبه المعرفة العملية (الروية)، لكنها إذا ما هي اعتُبرت لوحدها ما كانت روية بما أنها ليست مؤسسة على معرفة نظرية (على خلاف علم الطب النظري). ومن هناك، لا يمكن أن تؤدي إلى السعادة في ذاتها، وإنما الحاجة إلى العلم النظري تقف جنبا إلى جنب مع الحاجة إلى الوحي. في الختم، ينتهي ابن رشد إلى بيِّنية معتدلة حتى وإن كانت تخالف من بعض الوجوه بيِّنية الفارابي. والفارق الجوهري بين الرجلين أنه بالنسبة إلى ابن رشد يمكن للبشر العاديين (غير الأنبياء) أن يبلغوا أية درجة من المعرفة بالتعويل على دراسة الفلسفة، بينما بالنسبة إلى الفارابي وحدهم الأنبياء بإمكانهم بلوغ اليقين.

٣- «النزعة المضادة للبيِّنية المعتدلة»: وهي الموقف المنسوب إلى الأشعرية، بحكم أنها لا تعتقد أن الاعتقاد أمر مرهون بالبيِّنة وإنما هو أمر موكول إلى إرادة الله، فمن أراد الله أن يحمله على اعتقاد اعتقد فيه ولو أعوزت المعتقد البيِّنة. على أن المؤلف يرى أن مضادة البيِّنية أخذت منحى معتدلا مع الغزالي الذي يرى أنه حتى لو أن الله طلب منا ألا نعتقد شيئا إلا عن بيِّنة، فإن علينا اعتقاد ما هو في نهاية المطاف موكول إلى إرادة الله. على أن الغزالي يعتقد أن ثمة مسألة معرفية واحدة يمكن كسبها باستقلال عن الوحي هي الاعتقاد بأن النبي نبي حقا، لكن ما أن يعتقد فيها الإنسان حتى تصير معايير كل الاعتقادات الأخرى محددة في النهاية بإرادة الله. ولهذا يسمي المؤلف هذا الموقف «النزعة البيِّنية المعتدلة» التي تؤكد على أن كل القضايا. ما عدا واحدة. ينبغي أن يُعتقد فيها بإرادة من الله وليس ببيِّنة.

## اليقين والنبوة

يعود المؤلف في الفصل الثاني من كتابه لكي يعمق الرؤية السابقة. وأجَدُّ ما يطرحه هنا مسألة علاقة الاعتقاد بما

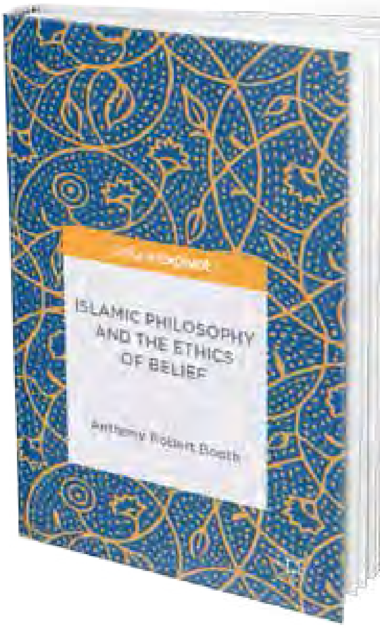


يسميه «الخاصة» من الناس. وقد سبق أن أكد على أن الفلاسفة المسلمين يتبنون ما دعاه «النزعة البينية المعتدلة» التي مفادها عنده: بالنسبة إلى «الخاصة» (أهل المعرفة أو الدراية)، فإن على الإنسان أن يعتقد أن (ب) حق إذا كانت ثمة بينة جيدة على صحة الاعتقاد بها. لكن الأمر لا ينطبق على «العامة» التي تأتي عليها أوقات تعتقد فيها لا عن بيِّنة وإنما عن أسباب عملية، مثل أن يكون الاعتقاد حاملا لها على تحقيق سعادتها، أو على السير على هدى ما رسمها له الله. وقد أهل هذا الأمر الفلاسفة إلى إدراك الدور الذي يؤديه النبي ولا يمكن للفيلسوف أن يؤديه: الهداية العملية للعامة. لكن في مسيرهم إلى هذه الفكرة اختلف الفلاسفة. ويعيد المؤلف طرح اختلافاتهم على النحو الذي كان قد طرحه في الفصل الأول . بما أن الكتاب تجميع لمقالات فقد اعتوره التكرار أحيانا. إذ بينما يذهب الفارابي إلى أن الأنبياء وحدهم يشكلون الخاصة، يذهب ابن رشد إلى القول إنما الفلاسفة هم الخاصة، وينحل النقاش حين يرى الفارابي أن الأنبياء هم بالضرورة فلاسفة. هذا بينما يذهب ابن سينا إلى أن الخاصة هم الفلاسفة، لكن يرى أن ثمة معرفة غير المعرفة الفلسفية، هي المعرفة الإشراقية التي للأنبياء نصيب فيها. ويقارن المؤلف بين الفارابي والغزالي، فيرى أن الخلاف بين الرجلين كامن في أمرين: أ . على خلاف الفارابي يعتقد الغزالي أن اليقين شيء متأت للبشر، ومن ثمة فهو أقرب إلى ابن سينا وابن رشد منه إلى الفارابي في مسألة «الخاصة». ب . لكن هنا يتوقف الغزالي عن أن يعطي للعقل المكانة العليا، ومن ثمة يهاجم الفلاسفة في تفضيلهم العقل على الوحي. ويستعرض الكاتب شرائط اليقين المطلق عند الفارابي، ويقف بالخصوص على الشرط السادس الذي يذهب فيه الفارابي إلى أن الحقائق المطلقة قد تحددت من لدن الله، ومن ثمة كانت ضرورية، حتى وإن كان النبي بشرا فانيا. وتكمن أهمية الفارابي وفائدته لإبستمولوجيا الشهادة اليوم في أنه وضع معيارا للتمييز بين النبي والمتنبي من غير أن يكون المُميز بالضرورة خبيرا في هذا الأمر أو نبيا، وإنما بالاستدلال فقط من خلال مهارات النبي الخطابية والعملية ودعوته. وعنده أن تصور الفارابي أشد إثمارا من تصور ابن رشد لأنّ تصور الفارابي يأخذ بعين النظر هشاشة الإنسان وضعفه. ومن ثمة يتوافق مع الطرح المعاصر.

## النبوة والسياسة

يفحص المؤلف هنا ما يلزم سياسيا عن النظرة الفلسفية الإسلامية التي تجمع بين القول بضعف بني البشر والتصديق بالنبوة والاعتقاد في النزعة البينية المعتدلة. وكان قد انتهى في الفصل السابق إلى أن نظرة الفارابي نظرة غائية تراعي مسألة الكمال البشري: ما هو حق نظرا وعملا ينبغي أن يتوافق مع الكمال البشري الذي هو الغاية المأمولة، تماما كما عند أرسطو، والذي به تتحقق السعادة. وإذ سبق أن ذكر أن قوة الخيال تقوى عند النبي وتضعف عند الإنسان العادي، وأنها هي ما يسمح للأول لا فقط بتحقيق أفضل يقين ممكن، وإنما أيضا بوهبه أفضل معرفة عملية ممكنة، فإنه يستنتج أن النبي أعلم من غيره بكيف يحول المثال إلى واقع متحقق. وذاك هو المدخل إلى سياسة العامة. ويذكر المؤلف هنا أن الفارابي امتاز على أقرانه بتخصيص كتابات مهمة للفلسفة السياسية اجتهادا لا فقط تقليدا. والذي يراه الفارابي أن النبي وحده من يتحقق فيه الشرط السادس من شروط اليقين المطلق: الجمع بين ملكة خيال سامية ومعرفة بالمبادئ العقلية الأولى. مما يكسبه مهارات تفسير الأفكار المعقدة للجمهور، والمعرفة بكيفية تنزيل الأفكار المجردة على الواقع، والعلم بكيفية تحقيق المثال في الدنيا. فالأنبياء هم الجامعون في الكمال البشري بين الكمال النظري والكمال العملي. ومن ثمة كان النبي هو الزعيم السياسي المثالي.

على أن النبي لا يمكنه أن يحيى بدوام حياة، لا ولا يمكنه أن يحكم كل مدينة. ذلك هو التحدي الذي حاول الفارابي الجواب عليه. وهو تحد يجد بعض مقارباته في موقف الفارابي من الديمقراطية، حيث يعتبرها . من بعض المناحي الأقرب إلى المدينة الفاضلة في المدن المضادة لها، وذلك لأنها تحتفظ ببعض «بؤر» و«نوابت» الفضيلة فيها، بما تجعلها أقرب إلى «الليبرالية» اليوم بل وحتى إلى «النزعة الفوضوية»!

ختاما، لست أرى الباحث إلا مجددا في حقل دراسات الفلسفة العربية الإسلامية مبرزا لما تحمله من إمكانات المساهمة الجادة في المواضيع التي أمست الفلسفة الغربية المعاصرة تناقشها. غير أني أرى أن لهذا التجديد حدودا. لقد جدد الرجل على مستوى الموضوع المطروح . أخلاقيات الاعتقاد . لكني أرى أنه أخفق في التجديد على مستوى الأسماء الفلسفية الإسلامية التي تناولها. إذ بقي شديد الكلاسيكية لَمّا عرض لفلاسفة الإسلام (الكندي، الفارابي، ابن سينا، ابن رشد) بينما أهمل أسماء أخرى أجد أنها أقدر من هذه على إثراء مباحث «إبستمولوجيا الاعتقاد» و«إبستمولوجيا الشهادة» و«إبستمولوجيا الوحي» و«إبستمولوجيا الخلاف» أذكر من بينها أسماء حنين بن إسحاق وأبي الحسن العامري ويحيى بن عدي وأبي سليمان السجستاني المنطقي وأبي حيان التوحيدي وأبي البركات البغدادي وابن كمونة والملا صدرا الشيرازي والشيخ الداماد والشيخ المفيد.. فلكل هؤلاء إسهامات جليلة في أخلاقيات الاعتقاد وفي أخلاقيات الخلاف كما حدثت من جهة بين فلاسفة النصارى واليهود والمسلمين، ومن جهة أخرى بين سنية الفلاسفة وشيعتهم..

---

- الكتاب: الفلسفة الإسلامية وأخلاقيات الاعتقاد
- المؤلف: أنطوني روبرت بوث
- دار النشر: بالغريف بيفوت Palgrave Pivot
- اللغة: الإنجليزية.
- سنة ومكان الصدور: ٢٠١٦ المملكة المتحدة
- عدد الصفحات: ١٠٠

* أكاديمي مغربي

# نحن المسيحيين والإسلامُ للبولندي يانوش كروليكوفسكي

**يوسف شحادة ***

**يشدنا القس البولندي، يانوش كروليكوفسكي، إلى نقطة التماس الحضاري بين المسيحية والإسلام على جانبي حوض البحر المتوسط. يُقدم كتابه، «نحن، المسيحيين، والإسلام»، على وقع موجات اللاجئين، والمُهاجرين، القادمين من البلاد العربية المسلمة، المنكوبة بالحروب، إلى أوروبا المسيحية المتوجسة من خطر أسلمتها. كروليكوفسكي أكاديمي في علوم اللاهوت، بدرجة بروفيسور، في جامعة البابا يوحنا بولس الثاني في كراكوف، وعميد فرعها في مدينة تارنوف البولندية، وصاحب مؤلفات ودراسات أكاديمية كثيرة في فلسفة الأديان واللاهوت. وقد عالجت مؤلفات بولندية عديدة قضايا الإسلام، وموقف المسيحية الأوروبية منها، ولعل أبرزها دراسات المستشرق القس كريستوف كوشتيلنياك، ومنها: «الجهاد. الحرب المقدسة في الإسلام. علاقة الدين بالدولة. الإسلام والديمقراطية. المسيحيون في البلدان الإسلامية» (كراكوف ٢٠٠٢)، و«التقاليد الإسلامية على خلفية التثاقف المسيحي الإسلامي من القرن السابع إلى العاشر» (كراكوف ٢٠٠١)، المسيحية وعشرون قرناً في الثقافة العربية» (كراكوف ٢٠٠٠). وله كتاب باللغة الألمانية في هذا المضمار عنوانه «المسيحية والإسلام. وجهات نظر، ومشكلات الحوار» (كراكوف ٢٠٠٥).**

يبدو يانوش كروليكوفسكي موضوعياً في طرحه، نبيهاً ممحصاً ظاهرة الخطر الإسلامي المزعوم، فنجده لا يُعير هذا القلق المبالغ فيه كبير انتباه، مدركاً أنّ المشكلة أكثر تعقيداً مما يرى أصحاب التفكير السطحي. يخصص فصول دراسته السبعة لأمور بالغة الأهمية، تنطلق من نظرة دينية متفائلة، عمادها بناء حضارة إنسانية ترمم انكسارات الحضارات السابقة، أو تجاوزها في إرساء مفاهيم جديدة تنشد الحوار لا التصادم. ويُعالج مسألة القلق من الآخر، والخوف منه، فيرجع إلى جذور المسألة التاريخية والثقافية، مبديا إدراكا كبيرا لخطورة الطرح السطحي الذي يتبناه بعض المحللين السياسيين. يؤكد في فاتحة الكتاب فكرة صحيحة وواعية، فيقول: «إنّ المشكلة مركبة وبالغة التعقيد، وجذورها عميقة تمتد بعيدًا في الماضي. فهي محصلة لمسارات دينية، وروحانية، وثقافية، وحضارية متعددة، لم تبدأ في السنوات القليلة الفارطة، كما يظن الملقون السطحيون..» (ص ٨). لذلك نجده يصرح ألا حل سهلا لهذه المشكلة، لكن رغم ذلك كله – حسب رأيه – يمكن إيجاد الحل المنشود بوجوب النظر في ما يعتمل من أحداث ومجريات ثقافية – دينية في حوض البحر المتوسط، والسعي إلى فهمها بما تحمل من خصائص، وبما يموج فيها من تيارات فكرية رئيسة.

يولي كروليكوفسكي منطقة حوض المتوسط أهمية كبرى راغبا في إقناع القارئ بفرادتها، فيعطيها قيمة حضارية عظمى، تجعلها تتبوأ مكانة مرموقة بين أصقاع العالم الفاعلة في سيرورة التاريخ البشري. ويؤكد أنّ هذه المنطقة كانت مركز العالم بشكل مستمر، وأن أيّ حدث مزلزل فيها تصل شظاياه إلى سائر بقاع المعمورة. وقد كانت الفلسفة القديمة التراث الأول الذي خلفته هذه المنطقة، وأصابت سهام تأثيره أطراف قارات الأرض كلها. وإذ يعطي كروليكوفسكي الفلسفة الكلاسيكية الإغريقية الأولوية، يعلن أنّ هذه الفلسفة لم يعد لها اليوم تأثير حقيقي مباشر في حياة الإنسان. لكنه لا يرى أنها فقدت أهميتها وتأثيراتها بشكل كامل، فهي ما زالت تستحوذ على اهتمام مُتجدد في دوائر الفكر العالمي. ورغم هذا التناول الجدلي للفلسفة القديمة، يبدي المؤلف ميلاً إلى آراء مجموعة كبيرة من الفلاسفة المبرزين في أن العودة إلى الفلسفة الكلاسيكية، ورغم خبو بريقها، «تبث الأمل لكسر الموجة البربرية التي تغمرنا، والتي تتصاعد بالتجاوب المستمر مع العدمية والفوضى، كونهما نتيجة لها» (ص ٦). وقد يبدو الحديث عن المعنى المقصود بمصطلح «البرابرة» ملغما وغائما، مع أن المؤلف يدور حوله عدة مرات، في زوايا مختلفة من كتابه، محاولا إيضاح كنه هذا المصطلح، ليقدم مقاربة تستقي من أفكار من سبقه في شرح هذا المفهوم الذي غالبا ما يكون في مقابلة – أو مواجهة – الفضيلة. ويفيد كروليكوفسكي من أطاريح كتاب «بعد الفضيلة»، لعالم الأخلاق، الفيلسوف الإسكتلندي ألسدير ماكنتاير، وهو أحد مؤلفاته العديدة في تاريخ الفلسفة واللاهوت. وفيه حديث عن أهمية «التقاليد الكلاسيكية» في بناء أمم بأشكال محلية، يمكن فيها حفظ العادات، والحياة الفكرية والأخلاقية، أمام عصر البربرية الجديدة. ويرى، كما كروليكوفسكي، أن البربرية أوشكت على الحلول، وأن تقاليد الفضيلة قد تمكنت من الصمود في وجه فظاعات عصر الظلمات الغابر. إن أمل القضاء على البرابرة، عند ماكنتاير، لا يمكن عده أملا بلا أساس متين. بيد أن تعبير صاحب «بعد الفضيلة»، الذي يتناغم معه رأي كروليكوفسكي، يثير الشك بماهية البرابرة حين يقول: «لكن البرابرة هذه المرة لا يحتشدون عند حدودنا، إنهم منذ فترة يتولون السلطة علينا» (ص ٧). ولا مندوحة لنا من التذكير هنا بمصطلح البرابرة، الذي اختلف معناه من زمن إلى آخر، ومن قوم إلى قوم، فقد كان هذا المسمى يطلق على كل فرد من أمم الأرض ما عدا اليوناني والروماني، فيقال يوناني وبربري. وترد هذه اللفظة في الكتاب المُقدّس، لكنها لا تتضمن شيئًا من معنى الخشونة والتوحّش الذي قد يتسم بهما هذا المفهوم في وقتنا الحاضر. ولعل القصد من وراء استخدام هذا المصطلح في كتاب كروليكوفسكي الإشارة إلى البرابرة الجرمانيين الذين سقطت بأيديهم روما سنة ٤٧٦م، وما رافق ذلك من تغيرات في الكنيسة والعقائد الأوروبية.

يُخصص كروليكوفسكي أوّل فصول كتابه لما يُسميها «الحالة الروحية لعالم اليوم»، منطلقاً من حيثية أنّ العالم قد انحرف عن حضارة حوض المتوسط، واهتز بتبعات تحولات أبعدته عن فضائل الأخلاق التي تُمثلها هذه الحضارة. فكل ما يسوق له اليوم بشعارات، مثل «العالم الجديد»، و«الإنسان الجديد»، لا يمثل في الحقيقة أي بدائل للحضارة المتوسطية، وإنما هو نتاج فكر فوضوي، ويساري، يُريد نبذ كل ما هو قديم، ووصفه أنّه رجعي. وفي خضم تحليله الحالة الروحية المنتكسة في أوروبا، في هذه الحقبة التي نعيش، يُبين أنّ المشكلة «المفتاحية» التي يضعها الإسلام تتلخص في كيفية النظر إليه، بغض النظر عن كونه ديانة أم إيديولوجيا. يقول كروليكوفسكي إنّ هاتين المسألتين متقاربتان في الإسلام، فلا لاهوتية فيه، وهو ظاهرة حقوقية «شرعية»؛ أما لاهوتيات التصوف فهي حاضرة فيه، ولكن بطابع هامشي، وفق تعبير الباحث الإيطالي، جيوسيبي ريزاردي، في كتابه «الإسلام. الروحانية والتصوف» (١٩٩٤). وإن كان الإسلام لديه مثل هذه المشكلات – كما يلمح كروليكوفسكي – فحضارات حوض المُتوسط القديمة، مثل الهيلينية واليهودية، قد فقدت منذ زمن بعيد قواها الخلاقة المؤثرة، والمسيحية أيضًا، في شكلها الحالي، أوشكت على الانتهاء. بيد أنّ الكاتب يؤمن في إمكانية تجديد المسيحية، فهي ستنفض عن وجهها غبار الماضي البائد، لتكون شريكًا مع الإسلام الجديد في استعادة الزخم الحضاري لحوض المُتوسط.

يجري الكاتب في فصول كتابه اللاحقة تحليلاً لجذور

المسيحية التي تعود إلى الحضارة اليهودية، والإغريقية-الرومانية، اللتين انتهتا بمجيء المسيح، وما أتى به من تعاليم لبناء حضارة جديدة على أنقاضهما. يبرز كروليكوفسكي اختلاف المسيحية، كنموذج ديني، عن نماذج تقليدية أخرى، ويبحث في شؤون الكنيسة، وشجونها، محدداً أهم مفاصلها التاريخية. ويسرد أنَّ الكنيسة أخذت شكلها الأوَّل بمُسمى «المسيحية القسطنطينية» (نسبة إلى الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول ٣٠٦-٣٣٧م)، حيث دخلت في مؤسسة الدولة وأصبحت جزءًا منها. وفي ظل ذلك يعالج ظهور الإسلام في القرون الوسطى، وحضوره القوي في جنوب المتوسط وشرقه، وكيف أصبح إحدى إمبراطوريتين تحكمان العالم، هما المسيحية والإسلامية. بيد أنَّ المسيحية كانت منقسمة إلى إمبراطوريتين: شرقية، مركزها القسطنطينية، وغربية، حاضرتها روما. وقد أصبح الإسلام قوة مهددة للمسيحية الغربية بعد فتح الأندلس، والتغلغل في جنوب فرنسا. وببساطة - كما يقول كروليكوفسكي - عدت هاتان الإمبراطوريتان المسيحيتان وجود الإسلام فاجعة ونكبة، وجرى التَّشديد على الفروق المتطرفة، التي عمَّقت الهوة بين المسيحية والإسلام، بدلاً من تأكيد نقاط التَّقارب بينهما. ونتج عن ذلك غرابة كاملة متبادلة بين نموذج الحياة المسيحي، ونموذج الحياة الإسلامي، وأصبحت المواجهات، والمعارك، والحروب، حاضرة بشكل دائم، تخللتها الهدن على ما يزيد عن ألف عام، ولكن السلم لم يحل قط. وقد جعلت الدولة العربية بسلطتيها الأموية والعباسية - كما يُسميها الكاتب - البحر المتوسط «بحيرة إسلامية»، بنظر العديد من المفكرين الفرنجة. ورغم هزيمة المسلمين قرب بواتيه، ووقف توسعهم في أوروبا، أصبحت الإمبراطورية العربية - كما يُسميها كروليكوفسكي - حقيقة جديدة كلياً في مستودع خبرات المسيحية القروسطية المبكرة، كنتيجة للفتح الديني المحمدي. وكما يؤكد الكاتب، معتمدا على دراسات المؤرخ إسيدوريوس باسسينيس، فإنَّ هذا المكان بالتحديد - بواتيه - شهد ظهور لفظة جديدة هي «أوروبي» في سياق وصف جند شارل مارتيل، الذين هزموا العرب في معركة «بلاط الشهداء». ويقر كروليكوفسكي أن توسع حدود الإمبراطورية الإسلامية، وبسرعة فائقة، في عمر جيل واحد فقط، وامتدادها من فارس شرقًا، إلى بيزنطة شمالاً، وإلى شمال إفريقية غربًا، أحدثا تحولات هائلة أفضت إلى ظهور نموذج حياتي جديد، كان له تأثير قوي في المسيحية التي تشبعت بأفكار القيصر قسطنطين وإمبراطوريته. ويحتج الكاتب بطرح المؤرخ هنري بيرين (١٨٦٢-١٩٣٥) الشهير، حيث يقر بأنَّ الإسلام حقيقة تاريخية، أغلقت الحضارة القديمة، وافتتحت الحضارة القروسطية، لكنه يرى أن هذا الطرح قد يكون غير دقيق من ناحية محدوديته، إذ يأخذ بعين الاعتبار الحجج المستقاة من ميدان التفاعلات الاقتصادية وحسب. وفي رأيه، أنَّ هذا الرأي يمكن أن يكون مقبولاً من منطلق تاريخي حضاري، وأن ميلاد الإسلام يُحدد مرحلة حاسمة في تاريخ المسيحية.

يتطرق كروليكوفسكي إلى انحسار التأثير العربي في حوض المتوسط إثر الأزمة الحادة، التي عصفت بالإمبراطورية العربية في القرن الثالث عشر الميلادي، وظهور الدولة العُثمانية القوية، ودورها الحاسم في تحولات حوض المتوسط في الفترة الممتدة من القرن الرابع

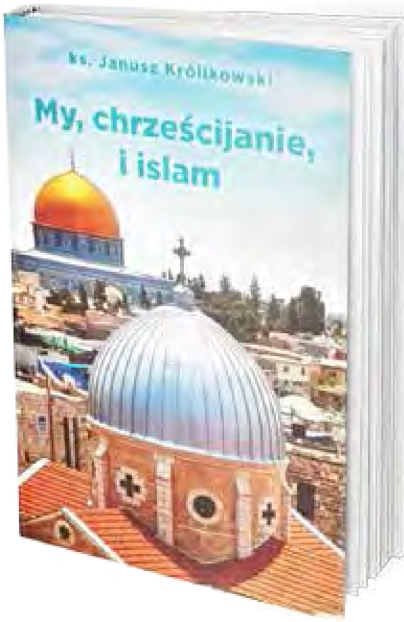


عشر، وحتى الثامن عشر الميلادي. ورغم أنَّ العثمانيين هزموا في أرباض فيينا عام ١٦٨٣، ولم تصل جيوشهم إسبانيا، فقد قضوا على بقايا الإمبراطورية المسيحية في الشرق، وتغلغلوا في العمق الأوروبي عبر البلقان، مهددين فيينا والبندقية. ويطرح الكاتب مسألة التأثير الإسلامي الكبير في أوروبا، وشمال إفريقية، ويبث مقارباته ملتزما بمنهج تحليلي تاريخي ينحى إلى قراءة مجريات التاريخ بموضوعية، معبرا عن فهم شامل لتأثيراتها من منظور الواقع المعيش. وهكذا نجده في مقاربته التي يطرح فيها مسألة الحضور الإسلامي، على أنه نتيجة لنموذج حياة مقترح نجح في جذب أقوام كثيرة إليه، مثل سكان الجزيرة العربية، ونوميديا، وتمكن من أسلمة، أو تعريب، الشعوب التي خضعت لحكمه. ولم يخل الأمر أيضا - حسب كروليكوفسكي - من فرض نموذج الحياة هذا، بالقوة، على بعض الفئات التي وقعت داخل حدوده. ويجد الكاتب تشابها بين نموذجي العيش: الإسلامي والمسيحي، فهما ينطلقان من مبدأ الإيمان بالله الواحد، المطلق، الكلي، الذي يحاسب فيعاقب ويجزي. وهذا النموذج الحياتي هو الذي وضع نهاية النموذج الإغريقي-الروماني، وعلى ما يبدو - كما يظن كروليكوفسكي - أبقى بعضا من عناصر النموذج اليهودي على الأقل، على الرغم من أنه، في أعماق منطلقاته، كان مهيأ لتقويض أركانه نهائيا.

يرى الكاتب أن حوض المتوسط فقد مركزيته العالمية بعد أن فقدت المسيحية الشرقية إمبراطوريتها، وعاصمتها القسطنطينية عام ١٤٥٣م، فانتقلت إلى الشمال الشرقي، أي: موسكو. وكذلك انتقلت المسيحية الغربية إلى أمريكا بعد اكتشافها في نهاية القرن الخامس عشر، فأصبح المحيط الأطلسي «البحر المتوسط الجديد» في الحضارة الجديدة. إذن، هذا الانتقال الحضاري سبب مشكلات كبيرة أدت إلى الابتعاد عن الأخلاق والإيمان، أي ترك نموذج الحياة المسيحي، وانتشار الفوضى والإلحاد في قطبي هذه الحضارة العالمية المعاصرة. يقدم كروليكوفسكي طرحا إيجابيا يهاجم فيه التطرف بشتى أنواعه، ويحث على الحوار بين ممثلي العقيدتين المسيحية والإسلامية. ويؤكد أن البلدان العربية، التي نشأت بعد انهيار الخلافة العثمانية، بدأت تفرض نفسها مؤيدة بقوتيها الاقتصادية والروحية. ويرى أن الإسلام يمكنه أن يمثل نقطة توازن وجذب في حوض المتوسط، ومن خلاله في المشهد العالمي، مستغلا قوته الاقتصادية على المستوى الثقافي. يقر الكاتب بأن الإسلام يقوم بفعل ذلك حقيقة، فكثير من الشباب الأوروبي يتمرد على الانحطاط الأخلاقي والثقافي الغربي، ويقف إلى جانب الرؤية الإسلامية. ويحث الساسة الأوروبيين على أن يفكروا مليا لماذا يتجاوب هؤلاء الشباب مع أكثر التيارات الإسلامية تطرفا، بل يلجأ بعضهم أحيانا لحمل السلاح ليقاتلوا الغرب. إن الأوروبيين والعرب منقسمون، ومازالوا بعيدين بعضهم عن بعض، والعداء متحفز بينهم. فقسم كبير من أهل الغرب يرى أن الإرهاب هوية الإسلام، وهذا ناتج عن انتشار آراء كثير من المسلمين، الذين يصرحون علانية بقبول الأعمال الإرهابية، بل والتشجيع عليها أحيانا.

لا بد - كما يقول صاحب «نحن، المسيحين، والإسلام» - من كسر حاجز العداء والخوف بين العرب والأوروبيين، وتشجيعهم على تمحيص وقائع تاريخهم، والتطلع إلى مهمتهم في العالم، ليس من منطلقات سياسية واقتصادية، بل من أجل خلق إمبراطورية ثالثة ذات طابع روحاني. إن العقيدتين المسيحية والإسلامية تمران بلحظة تاريخية حاسمة، تعيشان فيها أزمة خطيرة. فالتطرف، والهرطقة، والطائفية، ليست حكرا على دين واحد، بل تصيب الأديان جميعها بتأثيراتها الهدامة. وقد دخلت على الإسلام، كما المسيحية، مفاهيم جديدة فرضت عليه معادلات تطمح إلى تغيير نسيجه الحقيقي، ومنها النزعة القومية، والأفكار الاشتراكية، وقفزات التكنولوجيا، التي لها تأثير خبيث في ذهنية الناس.

يؤكد كروليكوفسكي أن الخروج من المأزق الحضاري ممكن، بوساطة الحوار بين المسلمين والمسيحيين، وتشكيل وعي جديد يقوم على الأخوة الإنسانية، لإقامة نموذج حضاري يعتمد على الميراثين المسيحي والإسلامي. ورغم صعوبة تصور تحقيق هذا النموذج الحضاري، الذي يبدو مثاليا لا يمكن تحقيقه، يحاول الكاتب إقناع القارئ بتفاؤل، يسميه بالواقعي، ويفرد له الفصل الأخير من كتابه ليؤكد أن أفكاره واقعية وليست شطحات خيال. في نهاية الدراسة يضع الكاتب ملحقا يتضمن خطابين للبابا يوحنا بولس الثاني (أولهما ألقاه في الدار البيضاء أمام الشباب المغربي عام ١٩٨٥، وثانيهما في ساحة المسجد الأموي بدمشق عام ٢٠٠١)، وثلاثة خطابات للبابا بندكت السادس عشر (ألقاها أمام مسلمين في كولن بألمانيا، ولواندا، القدس أمام الجامع العمري). وهذه الخطابات كلها تخدم فكرة الحوار والتقارب بين المسيحية والإسلام، ما يعزز مصداقية أفكار مؤلف «نحن، المسيحيين، والإسلام».

---

- عنوان الكتاب: نحن، المسيحيين، والإسلام
- المؤلف: يانوش كروليكوفسكي (Janusz Królikowski)
- الناشر: DEHON
- مكان النشر: كراكوف - بولندا
- سنة النشر: ٢٠١٦
- لغة الكتاب: البولندية
- عدد الصفحات: ١١٢ صفحة.

* أكاديمي فلسطيني مقيم في بولندا

# كتابة الرئيس لكانج وون جوك

محمود عبد الغفار *

**لماذا أصبح هذا الكتاب واحدًا من أكثر الكتب مبيعًا في الربع الأخير من عام ٢٠١٦م في كوريا الجنوبية؟ ولماذا يعاد طبعه ويحتل هذه المساحة من الأهمية بين القراء؟ أهو مجرد كتاب عن «كتابة الرئيس»؟ أهو سرد لمواقف وحكايات شاهد عيان خلال فترة عمله في القصر الرئاسي، أم أنّه يحوي ما هو أبعد من ذلك؟ أسئلة كثيرة ترسم الإجابة عنها صورة بانورامية لهذا الكتاب المهم بعنوان «كتابة الرئيس».**

تستمد قيمة هذا الكتاب وأهميته في بعض جوانبها من أنّ المؤلف «كان وون جوك» المولود عام ١٩٦٢م بمدينة جونج جو بجنوب كوريا، الذي درس الشؤون السياسية والدبلوماسية بجامعة سيول الوطنية، كان سكرتيرًا مسؤولاً عن كتابة خُطب اثنين من أهم رؤساء كوريا منذ الانتقال من الحكم الديكتاتوري بعد ثورة الثامن عشر من مايو ١٩٨٠م حتى يومنا هذا؛ وهما الرئيسان «كيم دي جونج» ثم الرئيس «نو مو هيون» اللذان تم انتخابهما بشكل ديمقراطي متحضر ولم يأتيا للحكم بقوة السلاح. ربما أحد أسرار تعلق القراء الكوريين بهذا الكتاب يكمن في الأمانة التي انتقل بها المؤلف من عرض مواقف تتعلق بالكتابة التي كان شاهدًا عليها؛ تلك التي أثرت فيه وفي الجمهور الذي تلقاها آنذاك دون أن يعرف كواليسها أو لنقل سياقات إنتاجها. فبدأ تشريح هذه السياقات الآن، ووضع المكتوب تحت مجهر الوصف نوعًا من تثقيف أو توعية جديدة على جمهور ربما لم يكن ينشغل كثيرًا بكيف قال الرئيس هذه العبارة ومن أين أتي بهذا الاقتباس ليدعم أفكاره؟ إلى آخر هذه التساؤلات.

يطرح الكتاب أفكارًا مهمة حول «كيف نكتب؟» و «كيف نعبر عن أفكارنا بوضوح؟» وقد سلك الكتاب مسلكًا بديعًا عبر ضرب أمثلة حقيقية في مواقف كان شاهدًا عليها أو جزءًا منها أثارت شوقًا عارمًا لدى الكوريين وشعورًا بالفقد لزعيمين عظيمين يعتبرهما الكوريون أيقونتين من أيقونات كوريا المدنية المتقدمة الراسخة الديمقراطية وبخاصة مع اندلاع شرار الأزمة الأخيرة باتهامات بالفساد طالت المقربين من رئيسة البلاد بل والرئيسة نفسها؛ التي جمدها البرلمان تقريبًا في التاسع من ديسمبر الجاري لحين الفصل في تهم الفساد الموجهة إليها عبر المحكمة الكورية. حالة الشوق والحنين للنموذجين السابقين ترجع إلى ما تمتعا به من صدق وأمانة وإخلاص وما شهدته البلاد معهما من نهضة حقيقية على كل المستويات. ففارق كبير ورهيب بين خريج واحدة من أهم الجامعات الكورية واختصاصي في الشؤون الدبلوماسية يكون عضوًا في المكتب الرئاسي ومسؤولاً عن كتابة خطب الرئيسين السابق ذكرهما؛ وهو مؤلف هذا الكتاب، ورئيسة تستعين بعرافين وأصدقاء عاديين جدًا في اختيار ما تقوله في المناسبات المختلفة.

منذ كشفت إحدى الصحفيات عن خيط يربط سيدة كورية برئيسة البلاد وأنّها حصلت على عمولات من شركات كبرى نظير تقديم تسهيلات لتلك الشركات، والأخبار تتكشف كل يوم وتأتي بما يصدم الشعب الكوري في رئيسة البلاد. في هذا السياق بدا هذا الكتاب مقارنة- غير مقصودة ولا مفتعلة- بين رؤساء عملوا لأجل كوريا وآخرين عملوا لأنفسهم، وذلك لأنّ الكتاب كان قد طُبِع قبل عامين ولم تكن قد حدثت أية أزمات آنذاك.

كلما عرض الكتاب فكرة حول عناصر الكتابة وكيف يتعرف القارئ على شخصية الكاتب من خلال ما يكتبه، انتقل القراء الكوريون لعقد مقارنات بين زعيمين لديهما وعي ومعرفة وشخصية خاصة ورئيسة متواضعة الإمكانيات تأخذ بنصائح قراء الطالع في اتخاذ قرارات رئاسية. فقد بدأ الكتاب بالتركيز على أنّ أهم ثلاثة عناصر تكشف عنها الكتابة هي: (الرؤية، والإيمان، والشجاعة). كما بين الكاتب أيضًا أنه تعرف على أدق أسرار الكتابة بالتجربة العملية عبر الرؤية والاستماع المباشرين في البيت الأزرق (القصر الرئاسي الكوري) خلال ثماني سنوات. لكن الكتاب لم يتحول لنوع من سرد المواقف والحكايات لأنّ الكاتب مهتم بالفكرة الأساسية وهي تبيان أسرار الكتابة وقدرتها في الكشف عن شخصية صاحبها وكذلك مدى ما يمكن أن تحققه من تأثير. ولعل هذا المزيج أيضًا من أحد أسباب تعلق القراء به.

من التقنيات الممتعة في عرض الأفكار كذلك هو تلك الاقتباسات التي يفتتح بها الحديث عن الموضوعات. فمثلاً يقول: «نحن أقوياء، حتى إن ظننا أننا ضعفاء!» فلو تشبثنا بهذه الفكرة وصدقناها صرنا أقوياء تدريجيًا بالفعل. مع التركيز على أمر مهم طيلة الوقت وهو أنَّ كلماتنا تكتسب قيمتها وتأثيرها لا من صداها ولكن من تحويلها من حيز القول إلى التنفيذ والفعل. يقول أيضًا إنّه تعلم أنَّ أبلغ وسيلة للتأثير والإقناع هو أن تكتب بأيسر الطرق وأكثرها إيجازًا وتركيزًا» من المقولات المؤثرة التي تكشف كذلك عن شخصية المؤلف: «الكتابة تأنق». فالمنزل الذي يشيَّد بالخشب مع الخشب وحده دون مسامير نموذجٌ للجمال والبساطة النابعة من القدرة على تعشيق القطع مع جاراتها في كل الاتجاهات. هنا يكمن الجمال الذي يخلد وهنا تكمن السلاسة والبساطة صعبة التحقق لأنّها تواجه الصنعة المكتسبة والمدفوعة للاستمرار بحكم تحويلها إلى سلعة استهلاكية ككل شيء. وبالتالي فأن تكون طبيعيًا ونقيًا وصافيًا يعني بالضرورة أن ما تقوله سيكون بليغًا ومؤثرًا. وهنا يدلل المؤلف على صدق تلك المقولة بمثال بالغ الأهمية لدى الكوريين.

فيرى أنه يمكن قول العديد والعديد من العبارات الخلابة والجمل الرنانة المشحونة بتراكيب إيحائية وتأثيرية خاصة حول أحقية كوريا في جزيرة «دوك دو» المتنازع عليها مع اليابان ومع ذلك تظل أبلغ عبارة تجسد هذا المعنى هي أقصر وأبسط وأوضح وأسلس ما يُمكن أن يقال: «دوك دو هي أرضنا.»

يُبرر المؤلف ذلك بأسلوبه الإقناعي الرشيق بقوله إنه كلما حدث تصنُّع وتنميق وتزيد في العبارات برزت الحاجة للشرح والتفسير وفُتح المجال للتأويل حسب الأهواء بما قد يؤدي أحيانًا لضياع الحقيقة. بينما الاختصار والسلاسة والوضوح كلها ضمانات لتجنب سوء الفهم. وعند هذا الحد يستشهد بمقولة معبرة ودالة للكاتب والروائي الفرنسي الشهير «مارسيل بروست» تشير إلى أن: «الاكتشاف الحقيقي ليس في الذهاب إلى أرض جديدة، بل في النظر إلى الأرض التي تقف عليها من زاوية مختلفة وجديدة!».

من الأمور المهمة التي يشير إليها الكتاب أيضًا مسألة المسافة بين الكاتب والقارئ. حيث يرى أنّ الاقتراب من الكاتب أو المتكلم ومعرفة السياقات التي أنتج فيها كتاباته أو مقولاته قد تدعم أو تدفع القارئ أو المستمع لتبني وجهة النظر نفسها لا على أساس اعتبارات القول أو الطريقة التي خرجت بها العبارات وإنما على أساس المعلومات المستمدة من السياق. بما يعني أننا نتأثر في تكوين وجهات نظرنا بما نعرفه من معلومات عن قرب حول شخصية القائل وهي المعلومات التي قد تدفعنا لنوع من التعاطف أو لتبني وجهة نظر ربما تتغير لو أننا تعاملنا مع لغة ذلك الشخص كما لو كان غريبًا تمامًا عنا. وبالتالي فإذا أردت أن تكوِّن رأيًا غير انفعالي عليك أن تحتفظ المسافة بينك وبين المتحدِّث. هذا ليس درسًا في فنون الكتابة بل في الحياة بشكل عام ولهذا اكتسب الكتاب قيمة كبيرة لدى القراء الكوريين. أتصور أن الذين قرأوا هذا الكتاب عندما وصلوا إلى هذه النقطة تذكروا على الفور كيف لعبت أمور كثيرة دورًا كبيرًا في قبول الرئيسة الحالية على خلفية والدها الرئيس الأسبق، وهي خلفية تشبه السياق الذي يحذر منه مؤلف الكتاب عند الحاجة لتكوين وجهة نظر. خلفية

ربما رأى فيها البعض تطمينًا باعتبار أنها تربت وترعرعت في بيئة سياسية ولديها خبرات وتجارب خاصة في تحمل المسؤولية مهما كانت الأعباء ثقيلة ومهما كانت الأجواء متوترة. أتصور كذلك أن الكثير من عباراتها وخطبها لم يلتفت إليها في حينها كلغة لأنها كانت دائمًا متلبسة بسياق تاريخي يشير إلى ماضيها السياسي المبشر وهو الأمر الذي تغير تمامًا عندما تكشفت بعض حقائق عن إمكانياتها المتواضعة في التفكير والتحدث واتخاذ القرار إلى الحد الذي انتشرت فيه بوسائل المواصلات والشوارع رسوم كاريكاتورية لرأس تلك الرئيسة مفتوحة من نصفها الأعلى وتجلس فيه إحدى العرّافات أو قارئات الطالع!

المسألة الأخرى التي يلح الكاتب في إبرازها مسألة اتفاق الظاهر مع الباطن أو الأقوال مع الأفعال. حيث يرى أن أبلغ وأيسر الطرق إلى الإقناع بحقيقة ما والتعبير بصدق يكون له صدى وقابلية يكمن في أن تتطابق أقوال المتكلم مع أفعاله وبخاصة في الأشخاص الذين تضعهم الجماهير تحت منظارها لفترة زمنية ليست بالقصيرة.

تأتي مقدمة الكتاب تحت عنوان «اتصال من البيت الأزرق» – هو القصر الرئاسي في كوريا الجنوبية – ويستعرض المؤلف فيها عددًا من العناصر مثل:

– مخاوفه من انفجار قنبلة الكتابة الخارجة من المكتب الرئاسي.

– ما الخطأ مع تعبير كوري يمكن كتابته بالعربية على هذا النحو «إِنْ مِين». فهذا التعبير كما يتناوله المؤلف يظنه الكوريون الجنوبيون خاصًا بالشيوعية وبالتالي خاصًا بكوريا الشمالية. على كل حال هو تعبير غير مستخدم في كوريا الجنوبية منذ الحرب بين الكوريتين، وبعدها استخدم التعبير بمعنى الجمهورية «الشعبية» في الشطر الشمالي من شبه الجزيرة الكورية. أحد أكبر الأحزاب الكورية الجنوبية وهو «سيه نو ري»، يعتمد في الحصول على تأييد مناصريه على نظرية مؤداها أنّ الشمال سيهاجم الجنوب بالأسلحة النووية، وهي النظرية ذاتها التي تبنتها الرئيسة الكورية الحالية «باك كن هيه»، وبالتالي فكل معارض أو صاحب وجهة نظر مختلفة أو حتى رافض لهذه النظرية يتم تصنيفه باعتباره معارضًا للنظام وللدولة حتى أصبح تعبير «إن مين» ذاته صار لمن يستخدمه في الجنوب باعتباره مدعمًا للشمال، هذا رغم أنّ الحديث عن السلام والوحدة بين الكوريتين مستمر طيلة الوقت ولكن فيما يبدو بشكل لا يتجاوز مجرد الكلمات فحسب. لقد استخدمت الرئيسة الحالية فكرة «الوحدة بين الكوريتين» خلال الدعاية الانتخابية، ثم تغير الحال مع الوقت وأصبح مجرد تعبير «الشعبي» يحمل دلالات تأييدية للشمال على حساب مصلحة الجنوب واستقراره. في سياق آخر استخدم الرئيس الأسبق «نو مو هيون» ذلك التعبير دون حساسيات أو تخوين ولم يكن يعني سوى أن الكوريين هم الكوريون وسيظلون بغض النظر عن مسألة الوجود في الشمال أو الجنوب.

ثم يستعرض الكتاب الكثير من الأفكار عبر عدد من الحكايات تبدأ أولاها تحت عنوان « خمسون يومًا مع فريق انتقال السلطة بالبيت الأزرق.» ويتعلق بها موضوعات ركزت على طبيعة عمل رئيس السكرتارية وكذلك طبيعة علاقته بالرئيس الكوري نفسه. ويكشف في ذلك السياق كيف أن أحد الرئيسين اللذين خدم معهما كان يتدرب على ما يكتبه أو يقوله من خطب مع السكرتير الخاص بتلك المسائل دون تأفف. وقد سردت تلك الحكاية الطريفة تحت عبارة مهمة وخطيرة ركز عليها المؤلف مرارًا: «المصدر الأوحد والأهم للكتابة هو القراءة!!». مع ذلك الموقف أيضًا

حكى تحت عنوان «على سكرتير الرئيس أن يترك ورقة يكتب فيها بوضوح مكان وجوده إن حدث وترك مكتبه ولو لثوانٍ معدودة»، فقد حدث وذهب إلى الحمام لقضاء حاجته دون أن يبلغ أحدًا بذلك، ثم فوجئ باستدعاء الرئيس له فورًا، فخرج من الحمام مهرولاً. قد تبدو هذه حكاية عادية يتعامل معها القارئ بابتسامة ما. لكني أعتقد أن القارئ الكوري لهذا الكتاب توقف أمام تلك الحكاية وتأملها وقارنها بحادثة أخرى خطيرة. فإن كان سكرتير الرئيس لا ينبغي عليه أن يغادر مكتبه دون إشارة إلى مكان وجوده فما بالنا بالرئيس نفسه في الأوقات العصيبة؟ لقد اختفت الرئيسة الحالية لسبع ساعات كاملة بعد إعلان خبر غرق السفينة التي كان يستقلها أكثر من ثلاثمائة تلميذ وتلميذة لقوا حتفهم جميعًا. أين كانت؟ أين اختفت؟ ألم تكن تتابع الحدث لحظة بلحظة مثل بقية أفراد الشعب؟ أسئلة كثيرة تكشفت بعض إجاباتها في الأسابيع الأخيرة والتي أدت في النهاية إلى ما أشرنا إليه في البداية.

– نقاط أخرى مهمة يشير إليها المؤلف:

– إن كنت تكتب ما يقوله غيرك، عليك ألا تترك جملة واحدة غير واضحة أو غير مفهومة.

– إن أردتَ أنْ تحقق كتابتك أهدافها، ضعْ عناوين رئيسة وكلمات مفتاحية لما تودُّ أنْ تكتبه.

– ليس هناك كتابة دون مادة أو موضوع ومفردات. يضرب مثلاً كاشفًا حول هذه الفكرة بقوله إنك لا تستطيع أنْ تصنعَ أيَّ نوعٍ من السَّلطة الخضراء بلبِّيسةِ الأحذية. فالمادة هنا شيء والأداة المستخدمة تصلح لمادة من شيء آخر تمامًا، ناهيكَ عن أنها لغرض أو لوظيفة مختلفة كلية أيضًا.

– الكتابة أشبه بإقامة بناء على أساس وهيكل من مواد خاصة ولأهداف محددة.

في الفصل أو الحكاية الثالثة يقول تحت عنوان « لو أنني قلتُ آسفًا واعتذرتُ لما قاضوني أو وبَّخوني!». هذه العبارة أشبه بوضع السياق العام الذي شهد خروج الملايين للتظاهر ضد الرئيسة الحالية بين هلالين كبيرين أو وضع خطوط فسفورية تحت كل خطب الرئيسة التي ألقتها على الجماهير الغاضبة دون أنْ تقدم اعتذارًا واضحًا ومباشرًا عما وقعت فيه من أخطاء. وبغض النظر عن إمكانية قبول هذا الاعتذار من عدمه فإن الجملة التي كتبت في سياق مختلف تمامًا أصبحت تجسيدًا أو تلخيصًا فذًا لرفض شعبي سلمي لأخطاء رئاسية لم يتم الاعتذار عنها. في هذا الفصل كذلك يعرض المؤلف لسبع عشرة طريقة لتحسين الكتابة لغةً وفكرًا وأسلوبًا.

في الفصل أو الحكاية الرابعة يتناول المؤلف «خطاب التهنئة» بيوم الاستقلال، ثم يتساءل عن السبب في اختفاء خاتمة ذلك الخطاب! ويدلل على قوة الخطاب المستمدة من إيجازه وتركيزه بنموذج من خطاب التقاعد للرئيس «كيم ديه جونغ» في مسقط رأسه. وفي الفصل التالي يتناول «العنصر المهيمن أو الأهم في الخطاب» عبر نقاط محددة. فخطابات الرؤساء تشهد مواجهات بين لغتين: لغة الرئيس ولغة العامة، والحل لتجاوز هذه المعضلة هو السهولة والوضوح ولا شيء غيرهما!

في الفصل التالي المعنون بـ« كُنْ شَبحًا»، يستله المؤلف بكلمة كتبها الرئيس الكوري على حزام الساعة «هدوء». لينطلق منها إلى التأكيد على أنّه إن أردتَ لرسالتك أن تصل إلى مبتغاها وتحقق أهدافها عليك أن «تسمع» جيدًا، ولكي تسمع عليك أن تهدأ. فمن يتحدث كثيرًا يستمع قليلاً. في هذا الفصل أيضًا يتناول ضرورة الانتباه إلى الفارق الكبير بين نوع الرسالة التي يقدمها الرئيس؛ المكتوبة، والمقروءة، والمسجلة في مقطع فيديو. فيرى أنّ الخطب الانفعالية تناسبها الصور والحركة التي تنقل المشاعر والأحاسيس مع اللغة، على عكس الخطب المكتوبة التي لا تحمل سوى الكلمات فحسب.

في الفصل التالي يناقش مسألة بالغة الخطورة تتعلق باختلاط خطب الرؤساء بعبارات إيديولوجية من قبيل «تنفيذ إرادة الرب». حيث يتم ربط السياسي بالديني لتحقيق أهداف أو مكاسب سياسية خاصة. لقد تحدث الكوريون مؤخرًا بقلق وتخوف شديدين عن أنه ربما تكون رئيسة البلاد قد نظرت إلى غرق التلاميذ على متن المركب من قبيل الفداء أو التضحية بالمعنى الديني على حساب المسؤولية السياسية والاجتماعية تجاه شعبها وتجاه أسر أولئك التلاميذ.

في الفصل التالي وعبر عناوين مشوقة يستخدم فيها صورًا من مكونات البيئة الكورية يمهد للربط بين المقدمات والنتائج في المكتوب بشكل عام وفي كتابه تحديدًا بشكل خاص عبر صورة مستمدة من الانتقال من نظام التدفئة القديم إلى النظام الحديث. ويختم الفصل بالعودة لنقطة التركيز والتحديد كضرورة من ضرورات الكتابة تحت عنوان « إنها تصبح وردةً، عندما يتم تسميتها بالوردة!».

في الفصل التاسع يتناول فكرة الحماس الشديد لكتابة افتتاحيات الخطب، يعقب ذلك الحديث عن خطابات الحب لأجل الكوريين. ويختم الفصل بما يجب أن يتمتع به الشخص الذي يطمح أن يضع تاج العرش فوق رأسه وبخاصة فيما يتعلق بالقول أو الكتابة. في النقطتين الأخيرتين من هذا الفصل يتحدث عن موقف محدد حين مزق الرئيس كيم دي جونغ ورقةً إلى نصفين، ثم عن قيمة السلوك وكيفية التواصل والفرق بين الرئيسين «كيم دي جونغ» و«نو مو هيون». في الفصل العاشر والأخير يتحدث إلى أسرته وعن تشرفه بتلك الأسرة وتشريفه لها.

---

– الكتاب: كتابة الرئيس
– الكاتب: كانج وون جوك
– الناشر: ميدتشي ميديا، كوريا الجنوبية.
– اللغة: الكورية

* مدرس الأدب الحديث والمقارن، كلية الآداب - جامعة القاهرة

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.
مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ +٩٦٨ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ +٩٦٨
البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net